العواصف

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكر العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران .. »



دار العرب
للبستاني
٢٨ ش الفجالة ـ القاهرة



رسم المؤلف

حفـار القبـور

فى وادى ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرت وحيداً فى ليلة حجب الضباب نجومها ، وخامر الهول سكينتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع المنساب كالحية الرقطاء ، المتراكض كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً لهمس الأشباح ، محدقا باللاشيء .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من أوكارهـا ، سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب منى ، فالتفت فإذا بشبح جبار مهيب منتصب أمامى ، فصرخت مذعوراً « ماذا تريد منى ؟ » .

فنظر إلىّ بعينين مشعشعتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء « لا أريد شيئاً وأريد كل شيء » .

قلت « دعنى وشأنى وسر فى سبيلك » .

فقال مبتسما « ماسبيلى سوى سبيلك » فأنا سائـر حـيث تسير ورابض حيث تربض » .

قلت « جئت أطلب الوحدة فخلّنى ووحدتى » .

فقال « أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافنى ؟ » .

قلت «لست بخائف منك » .

فقال « إن لم تكن خائفاً فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح » .

قلت « إن الهواء يتلاعب بأثوابى فترتجف أما أنا فلا أرتجف » .

فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال « أنت جبان تخافنى وتخاف أن تخافنى فخوفك مزدوج ولكنك تحاول إخفاءه عنى وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكنى وتغيظنى » .

ثم جلس على الصخر فجلست قسر إرادتى محدقاً بملامحه المهيبة .

وبعد هنيهة خلتها ألف عام نظر إلىّ مستهزئاً وسألنى قائلا « ما اسمك ؟ » .

قلت « اسمى عبد الله » .

فقال « ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده ، فهلا دعوت نفسك سيد الشياطين وأضفت بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة جديدة » .

قلت « اسمى عبد الله وهو اسم عزيز أعطانى إياه والدى يوم ولادتى فلن أبدله باسم آخر » .

فقال « إن بلية الأبناء فى هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات » .

فحنيت رأسى مفكراً بكلماته ، مسترجعاً إلى حافظتى رسوم أحلام شبيهة بحقيقته ثم عاد وسألنى قائلا « وما صناعتك ؟ » .

قلت « أنظم الشعر وأنثره ولى فى الحياة آراء أطرحها على الناس » .

فقال « هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم » .

قلت « وماذا عسى أن أفعل بأيامى وليالى لأنفع الناس » .

فقال « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم » .

قلت « لم أر قط جثث الأموات متكردسة حول المنازل » .

فقال « أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا متطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم » .

قلت وقد ذهب عنى بعض الوجل « وكيف أميز بين الحى والميت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة ؟ » .

فقال « إن الميت يرتعش أمام العاصفة أما الحى فيسير معها راكضاً ولا يقف إلا بوقوفها » .

واتكأ إذ ذاك على ساعده فبانت عضلاته المحبوكة كأصول سنديانة مملوءة بالعزم والحياة ثم سألنى قائلا « أمتزوج أنت ؟ » .

قلت « نعم وزوجتى امرأة حسناء وأنا كليف بها » .

فقال « ما أكثر ذنوبك ومساوئك — إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً » .

قلت « لى ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه فماذا أفعل بهم ؟ »

فقال « علمهم حفر القبور ، وأعط كل واحد رفشاً ثم دعهم وشأنهم » .

قلت « ليس لى طاقة على الوحدة والانفراد فقد تعودت لذة العيش بين زوجتى وصغارى فإن تركتهم تركتنى السعادة » .

فقال « ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاء أبيض . ولكن إن كان لابد من الزواج فاقترن بصبية من بنات الجن » .

قلت مستغرباً « ليس للجن حقيقة فلماذا تخدعنى ؟ »

فقال « ماأغباك فتى — ليس لغير الجن حقيقة ومن لم يكن من الجن كان فى عالم الريب والالتباس » .

قلت « وهل لصبايا الجن ظرف وجمال » .

فقال « لهن ظرف لا يزول وجمال لايذبل » .

قلت « أرنى جنية فأقنع » .

فقال « لو كان بإمكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرت عليك بزواجها » .

قلت « وما النفع من زوجة لاتُرى ولا تُمس ؟ » .

فقال « هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها » .

وحول وجهه عني دقيقة ثم عاد وسألنى قائلا « ومادينك ؟ ».

قلت « أؤمن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولى رجاء بالآخرة » .

فقال « هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك أما الحقيقة المجردة فهى أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولاتهوى غير أميالها ولا رجاء لك إلا بخلودها . منذ البدء والإنسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه فتارة يدعوها

البعل وطوراً المشترى وأخرى الله » .

ثم ضحك فانفجرت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد قائلا « ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيف منتنة » .

* * *

ومرت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيها معانى أغرب من الحياة وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى إذا ماتاهت فكرتى بين مظاهره ومزاياه ، وهاجت أميالى لاستعلان أسراره وخفاياه ، صرخت قائلا « إن كان لك رب فبربك قل لى من أنت » .

قال « أنا رب نفسى » .

فقلت « وما اسمك ؟ » .

قال « الإله المجنون » .

فقلت « وأين ولدت ؟ »

قال « فى كل مكان » .

فقلت « وأى متى ولدت ؟ » .

قال « فى كل زمان » .

فقلت « ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذى باح لك بأسرار الحياة وبواطن الوجود ؟ »

قال « لست بحكيم فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء بل أنا مجنون قوى أسير فتميد الأرض تحت قدمى وأقف فتقف معى مواكب النجوم.وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة ، وفهمت أسرار

الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل » .

فقلت « وماذا تفعل فى هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيامك ولياليك ؟ »

قال « فى الصباح أجدف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ، وفى المساء أسخر بالطبيعة ، وفى الليل أركع أمام نفسى وأعبدها » .

فقلت « وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام ؟ » .

قال « أنا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل أجساد البشر ونشرب دماءهم ونتحلى بلهاتهم » .

وانتصب إذ ذاك مكبلا ذراعيه على صدره ثم أحدق بعينى وقال بصوت عميق هادئ « إلى اللقاء فأنا ذاهب إلى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة »

فهتفت قائلا « أمهلنى دقيقة فلى سؤال آخر » .

فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل « إن الآلهة المجانين لا يمهلون أحداً — فإلى اللقاء » .

واختفى عن بصرى وراء ستائر الدجى وتركنى خائفاً طائشاً محتاراً به وبنفسى .

ولما حولت قدمى عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك الصخور الباسقة قائلا :

« إلى اللقاء إلى اللقاء » .

وفى اليوم التالى طلقت امرأتى وتزوجت صبية من بنات الجن ، ثم

أعطيت كل واحد من أطفالى رفشاً ومحفراً وقلت لهم « اذهبوا وكلما رأيتم ميتاً واروه فى التراب » .

ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات ، غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدى وليس من يسعفنى !

العبودية

إنما الناس عبيد الحياة وهى العبودية التى تجعل أيامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .

ها قد مر سبعة آلاف سنة على ولادتى الأولى وللآن لم أر غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين .

لقد جبت مشارق الأرض ومغاربها وطفت فى ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح ، ولكننى لم أر للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال ، وسواعد موثوقة بالسلاسل ، وركب جاثية أمام الأصنام .

وقد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس ومن نينوى إلى نيويورك ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار اقدامه ، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهياكل ، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر، فرأيت العامل عبداً للتاجر والتاجر عبداً للجندى ، والجندى عبداً للحاكم والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات .

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء، ووقفت فى المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفى المآوى المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجعن على أسرة الطاعة والامتثال .

اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات إلى مصب النيل إلى جبل سينا إلى ساحات أثينا إلى كنائس رومية إلى أزقة القسطنطينية إلى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان فى موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها إلٰهاً ، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكا ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الأرض ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعونها إخاء ومساواة ثم يجدون ويجاهدون فى سبيلها ويدعونها مالا وتجارة .. فهى ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هى علة أزلية أبدية تجئ بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة وتلقى بذورها العصور فى تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول .

* * *

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها :

العبودية العمياء — وهى التى توثق حاضر الناس بماضى آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة وقبوراً مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء — وهى التى تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التى يمقتها وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذى تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم ...

والعبودية الصماء — وهى التى تُكرِه الأفراد على اتباع مشارب محيطهم والتلون بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالخيالات .

والعبودية العرجاء — وهى التى تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين وتسلم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامحين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الأصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء — وهى التى تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل فى جوار القنوط فيشبون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين .

والعبودية الرقطاء — وهى التى تبتاع الأشياء بغير أثمانها وتسمى الأمور بغير أسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثرثرة معرفة والضعف ليناً والجبانة إباء .

والعبودية العوجاء — وهى التى تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يضمرون ويصبحون بين أيدى المسكنة مثل ثوب تطويه

وتنشره .

والعبودية الحدباء ـــ وهى التى تقود قوماً بشرائع قوماً آخرين .

والعبودية الجرباء ـــ وهى التى تتوج أبناء الملوك ملوكاً .

والعبودية السوداء ـــ وهى التى تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء .

والعبودية للعبودية نفسها هى قوة الاستمرار .

* * *

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال ، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم جلست وحيداً فى وادى الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزيلا يسير منفرداً محدقا بوجه الشمس فسألته (من أنت وما اسمك ؟) .

قال « اسمى الحرية » .

قلت « وأين أبناؤك ؟ » .

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد » ثم توارى عن عينى وراء الضباب .

الملك السجين

خفف عنك أيها المليك الأسير فلست فى سجنك أشد بلاء منى فى جسدى.اربض وكن متجلداً يا أبا الأهوال ، فالاضطراب أمام النوائب حرى ببنات آوى ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان .

سكن روعك يافتى العزم وانظر إلىّ فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحى ولكنه يخشى الاقتراب إليك .

كلانا منفى عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه فخفض عليك جأشك وكن مثلى صابراً على مضض الأيام والليالى ، ساخراً بهولاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون ؟

لقد صرخت قبلك فى آذانهم فلم أستوقف غير أشباح الدجى ، وتفحصت مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبراً أمام المقيدين بالسلاسل وضعيف يتوقح متصلباً أمام المسجونين فى الأقفاص .

* * *

انظر أيها المليك الجبار ، انظر إلى هولاء المحيطين بسجنك الآن ، تفرس فى وجوههم تجد فى ملامحهم ما كنت تراه فى سحنات أدنى رعاياك وأعوانك فى مجاهل الصحراء فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ومنهم من يضارع الأفعى بخبثه ، ولكن ليس بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى .

انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل ، وهذا كالجاسوس خشونة أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشى على الاثنتين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيبه فى الهياكل . وتلك كالطاووس تيهاً وإعجاباً أما ريشها فمستعار .

وانظر أيها السلطان المهيب . انظر إلى تلك القصور والمعاهد ، فهى أوكار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخراً بزخارف سقوفها التى تحجبه عن النجوم مغتبطاً بصلابة جدرانها التى تفصله عن أشعة الشمس . هى كهوف مظلمة تذبل فى ظلالها أزاهر الشباب وتترمد فى زواياها جمرة الحب وتتحول فى فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان ، هى سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة فهى أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبئ الخوارج بين جنباتها ، هى ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، والرغائب تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف . وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب : بل هى غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة

المظاهر ، معطرة الأذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب . أما ملوكها فليست أسداً نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع .

* * *

فدتك روحى أيها المليك السجين فقد أطلت الوقوف لديك وأسهبت بالكلام أمامك ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين وهى النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين فسامح فتى يلوك الكلام متسلياً به عن الطعام ويرتشف الأفكار مستعيضاً بها عن الشراب .

إلى اللقاء أيها الجبار المهيب فإن لم يكن اللقاء فى هذا العالم الغريب فسيكون فى عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشعراء .

يسوع المصلوب

« كتبت يوم الجمعة الحزينة »

اليوم وفى مثل هذا اليوم من كلِّ سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلفة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصرى معلقاً على خشبة الصليب .. وعندما تغيب الشمس عن مآتى النهار تعود الإنسانية وتركع مصلية أمام الأصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفى سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفا قارعين صدورهم ، محدقين بشبح مكلل بالأشواك باسط ذراعيه أمام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة .. ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون ويضطجعون جماعات جماعات فى ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول .

وفى مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متهيبين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه : (يا أبتاه ، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون) .. ولكن لا تكتنف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء ويكفنون

أرواحهم بصفحات الكتب البالية .

إن النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجن اليوم من منازلهن يشاهدن المرأة الحزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغصاتها الأليمة .

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء . ولكن عندما تمل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين .

فى مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصرى ثم تطبق أجفانها وتنام نوما عميقاً . أما الربيع فيظل مستيقظاً مبتسما سائراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الأذيال .

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال . ولو كانت الإنسانية رجلا لفرحت بمجدهم وعظمتهم .

الإنسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التى تهصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقذار المنتنة .

الإنسانية ترى يسوع الناصرى مولوداً كالفقراء عائشا كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوبا كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كل ما تفعله

لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلا والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية .

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً و لم يمت شاكيا متوجعا بل عاش ثائراً وصلب متمرداً ومات جباراً .

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر بهبوبها جميع الأجنحة المعوجة .

لم يجئ يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مضطهديه و لم يخش أعداءه و لم يتوجع أمام قاتليه بل كان حراً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البثور الكريهة فيبضعها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقى بالرياء فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبنى من حجارتها الأديرة والصوامع ويستهوى الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً بل جاء ليبث فى فضاء هذا العالم روحا جديدة قوية تقوض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين .

لم يجىء يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة فى جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ، بل جاء ليجعل قلب الإنسان هيكلا ونفسه مذبحًا وعقله كاهنًا .

هذا ماصنعه يسوع الناصرى وهذه هى المبادئ التى صلب لأجلها مختاراً ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيج الغلبة والانتصار .

* * *

وأنت أيها الجبار المصلوب ، الناظر من أعالى الجلجلة إلى مواكب الأجيال السامع ضجيج الإثم ، الفاهم أحلام الأبدية ، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالا ومهابة من ألف ملك على ألف عرش فى ألف مملكة . بل أنت بين النزع والموت أشد هولا وبطشًا من ألف قائد فى ألف جيش فى ألف معركة .

أنت بكآبتك أشد فرحا من الربيع بأزهاره . أنت بأوجاعك أهدأ بالا من الملائكة بسمائها ، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور الشمس .

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج بهرام ، والمسمار فى كفك أسمى وأفخم من صولجان المشترى ، وقطرات الدماء على قدميك أسنى لمعانًا من قلائد عشتروت ، فسامح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لايدرون كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون بأنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن فى القبور .

على باب الهيكل

قد طهرت شفتى بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتى للكلام وجدتنى أخرساً .

كنت أترنم بأغانى الحب قبل أن أعرفه ولما عرفته تحولت الألفاظ فى فمى إلى لهاث ضئيل ، والأنغام فى صدرى إلى سكينة عميقة .

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونى عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم وأقنعكم ، أما الآن وقد غمرنى الحب بوشاحه ، فجئت بدورى أسألكم عن مسالكه ومزاياه فهل بينكم من يجيبنى ؟ جئت أسألكم عما بى وأستخبركم عن نفسى فهل بينكم من يستطيع أن يبين قلبى لقلبى ويوضح ذاتى لذاتى ؟

ألا فاخبرونى ما هذه الشعلة التى تتقد فى صدرى وتلتهم قواى وتذيب عواطفى وأميالى ؟

وما هذه الأيدى الخفية الناعمة الخشنة التى تقبض على روحى فى ساعات الوحدة والانفراد وتسكب فى كبدى خمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع ؟

وما هذه الأجنحة التى ترفرف حول مضجعى فى سكينة الليل فأسهر مترقباً ما لا أعرفه مصغياً إلى ما لا أسمعه ، محدقا بما لا أراه ، مفكراً بما

لا أفهمه ، شاعراً بما لا أدركه ، متأوهاً لأن فى التأوه غصات أحب إلىّ من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً إلى قوة غير منظورة تميتنى وتحيينى ثم تميتنى وتحيينى حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتى فأنا إذ ذاك وبين أجفانى الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى فراشى الحجرى تتمايل خيالات الأحلام .

* * *

وما هذا الذى ندعوه حباً ؟

أخبرونى ما هذا السر الخفى الكامن خلف الدهور المختبئ وراء المرئيات ، الساكن فى ضمير الوجود ؟

ما هذه الفكرة المطلقة التى تجىء سبباً لجميع النتائج وتأتى نتيجة لجميع الأسباب ؟

ما هذه اليقظة التى تتناول الموت والحياة وتبتدع منها حلماً أغرب من الحياة وأعمق من الموت ؟

أخبرونى أيها الناس — أخبرونى هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة الحياة إذا مالمس الحب روحه بأطراف أصابعه ؟

هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبية التى أحبها قلبه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحارى ويجتاز الجبال والأودية ليلتقى بالمرأة التى اختارتها روحه ؟

أى فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصى الأرض إذا ما كان له فى أقاصى الأرض حبيبة يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها و يستعذب رنة

صوتها ؟

أى بشر لا يحرق نفسه بخوراً أمام إله يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟

* * *

وقفت بالأمس على باب الهيكل أسأل العابرين عن خفايا الحب ومزاياه فمر أمامى كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً « الحب ضعف فطرى ورثناه عن الإنسان الأول » .

ومرفتى قوى الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً « الحب عزم يلازم كياننا ويصل حاضرنا بماضى الأجيال ومستقبلها » .

ومرت امرأة كفيفة العينين وقالت متنهدة « الحب سم قتال تتنفسه الأفاعى السوداء المتقلبة فى كهوف الجحيم فيسيل منتشراً فى الفضاء ثم يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفه الأرواح الظامئة فتسكر دقيقة ثم تصحوا عاما ثم تموت دهراً » .

ومرت صبية موردة الوجنتين وقالت مبتسمة « الحب كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها إن تتعالى متجمدة أمام كواكب الليل وتسبح مترنمة أمام شمس النهار » .

ومر رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً « الحب جهالة عمياء تبتدئ ببدء الشباب وتنتهى بنهايته » .

ومر رجل ذو وجه صبوح وملامح منفرجة وقال فرحاً « الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الآلهة » .

ومر أعمى يجس الأرض بعكازه وقال منتحباً « الحب ضباب كثيف

يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح أميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتيا من خلايا الوادى » .

ومر شاب يحمل قيثارة وقال منغما « الحب شعاع سحرى ينبثق من أعماق اللذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً فى مروج خضراء والحياة حلماً جميلا منتصباً بين اليقظة واليقظة » .

ومر هرم منحنى الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً « الحب راحة الجسم فى سكينة القبر وسلامة النفس فى أعماق الأبدية » .

ومر طفل ابن خمس وهتف ضاحكا « الحب أبى والحب أمى ولا يعرف الحب سوى أبى وأمى » .

* * *

وانقضى النهار والناس يمرون أمام الهيكل وكل يصور نفسه متكلما عن الحب ويبوح بأمانيه معلناً سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحب هو النصف الملتهب » .

فدخلت الهيكل إذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلا مصلياً هاتفاً « اجعلنى يا رب طعاماً للهيب — اجعلنى أيها الإله مأكلا للنار المقدسة . آمين » .

أيها الليل

ياليل العشاق والشعراء والمنشدين .

ياليل الأشباح والأرواح والأخيلة .

ياليل الشوق والصبابة والتذكار .

أيها الجبار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، والناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصغى بألف أذن إلى أنة الموت والعدم .

أنت ظلام يرينا أنوار السماء والنهار نوراً يغمرنا بظلمة الأرض .

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية والنهار غرور يوقفنا كالعميان فى عالم المقاييس والكمية .

أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة فى الفضاء العلوى ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والرغائب .

أنت عادل يجمع بين جنحى الكرم أحلام الضعفاء بأمانى الأقوياء . وأنت شفوق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى عالم أقل قساوة من هذا العالم .

بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم وعلى قدميك

المغلفتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفى راحتيك المعطرتين بطيب الأودية يضيّع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

فى ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين ، فأنت ملقن الشعراء والموحى إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين .

* * *

عندما ملّت نفسى البشر وتعبت أجفانى من النظر إلى وجه النار سِرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة .

هناك وقفت أمام كائن أقتم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية .

هنالك أحدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الأجنحة غير المنظورة شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستبسلا أمام مخاوف الظلام .

هنالك رأيتك أيها الليل شبحاً هائلا جميلا منتصباً بين الأرض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، ممنطقاً بالضباب ضاحكا من الشمس ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين أمام الأصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج محملقاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسِرة الأطفال ، باكياً لابتسام الساقطات مبتسما لبكاء العشاق رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك أيها الليل ورأيتنى ، فكنت بهولك لى أبا وكنت بأحلامى لك ابناً ، فأزيحت من بيننا ستائر الأشكال وتمزق من وجهينا نقاب الظن والتخمين فأبحت لى بإسرارك ونواياك ، وأبنتُ لك أمانىّ وآمالى حتى إذا تحولت أهوالك إلى أنغام أعذب من همس الأزهار ، وتبدلت مخاوفى بأنس أطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتنى إليك ، وأجلستنى على منكبيك ، وعلّمتَ عينى النظر وعلمت أذنى السمع ، وعلمت شفتى الكلام ، وعلمت قلبى محبة مالا يحبه الناس وكره مالا يكرهونه ، ثم لمستَ بأناملك أفكارى فتدفقت أفكارى نهرا راكضاً مترنما يجرف الأعشاب الذابلة ثم قبلتَ بشفتيك روحى فتمايلت روحى شعلة متقدة تلتهم الأنصاب اليابسة .

* * *

لقد صحبتك أيها الليل حتى صرتُ شبيهاً بك ، وألفتُك حتى تمازجتْ أميالى بأميالك ، وأحببتك حتى تحول وجدانى إلى صورة مصغرة لوجودك ، ففى نفسى المظلمة كواكب متلمعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس فى الصباح . وفى قلبى الرقيب قمر يسعى تارة فى فضاء متلبد بالغيوم وطوراً فى خلاء مفعم بمواكب الأحلام . وفى روحى الساهرة سكينة تبيح بتفاعيلها سرائر المحبين وترجع خلاياها صدى صلواة المتعبدين . وحول رأسى غلاف من السحر تمزقه حشرجة المنازعين ثم تحيطه أغانى المتشببين .

أنا مثلك أيها الليل وهل يحسبنى الناس مفاخراً إذا ما تشبهت بك وهم إذا تفاخروا يتشبهون بالنهار !

أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .
أنا مثلك بأميالى وأحلامى وخلقى وأخلاقى .
أنا مثلك وإن لم يتوجنى المساء بغيومه الذهبية .
أنا مثلك وإن لم يرصع الصباح أذيالى بأشعته الوردية .
أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقاً بالمجرة .

أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتى بدء وليس لأعماقى نهاية ، فإذا ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفراحها تتعالى روحى متجمدة بظلام كآبتها .

أنا مثلك أيها الليل ولن يأتى صباحى حتى ينتهى أجلى .

الجنية الساحرة

إلى أين تسيرين بى أيتها الساحرة ؟

حتى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة ، المنسابة بين الصخور ، المفروشة بالأشواك ، المتصاعدة بأقدامنا نحو الأعالى ، الهابطة بنفسينا إلى الأعماق ؟ .

قد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسياً مابى من الأحلام ، محدقا بما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسى ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة فى جسدك .

قفى بى هنيهة لأرى وجهك ، أنظرى إلىّ دقيقة لعلى أرى فى عينيك أسرار صدرك ، وأفهم من ملامحك مخبآت نفسك .

قفى قليلا أيتها الجنية فقد مللت المسير وارتعدت روحى من مخاوف الطريق قفى فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة ، ولن أسير خطوة أخرى حتى تستعْلِنَ روحى نيات روحك ، ويستوضح قلبى خزائن قلبك .

* * *

اسمعى أيتها الجنية الساحرة :

كنت بالأمس طائراً حراً أتنقل بين السواقى وأسبح فى الفضاء وأجلس

على أطراف الغصون عند المساء متأملا بالقصور والهياكل فى مدينة الغيوم المتلونة التى تبقيها عند الأصيل وتهدمها قبل الغروب .

بلى كنت كالفكر أسير منفرداً فى مشارق الأرض ومغاربها ، فرحا بمحاسن الحياة وملذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود وأسراره .

بل كنت كالحلم أسعى تحت جنح الليل وأدخل من شقوق النوافذ إلى خدور العذارى النائمات وأتلاعب بعواطفهن . ثم أقف بجانب أسرة الفتيان وأثير أميالهم ثم أجلس بقرب مضاجع الشيوخ وأستجلى أفكارهم .

واليوم ، وقد لقيتكِ أيتها الساحرة ، وتسممت بقبل يديك فقد أصبحت مثل أسير أجرُّ قيودى إلى حيث لا أدرى ، بل إنى صرت مثل نشوان أستزيد من الخمر التى سلبتنى إرادتى وألثم الكف التى صفعت وجهى .

ولكن قفى قليلا أيتها الساحرة فها قد استرجعت قواى وكسرت القيود التى برت قدمى ، وسحقت الكأس التى شربت منها السم الذى استطيبته . فماذا تريدين أن نفعل وعلى أية طريق تريدين أن نسير !

قد استرديت حريتى فهل ترضين بى رفيقا حراً « ويحدق بوجه الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة ؟ » .

قد فتحت جناحى ثانية فهل تصحبين فتى يصرف الأيام متنقلا كالنسر بين الجبال ، ويقضى الليالى رابضاً كالأسد فى الصحراء ؟

هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيداً ؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

هل ترتاحين إلى أميال نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنها لاتنهصر ، وتثور مع الزوابع ولكنها لاتقتلع من مكانها ؟

هل ترضين بى صاحباً لايَستعبد ولا يُستعبد ؟

إذاً هذه يدى فهزيها بيدك الجميلة . وهذا جسدى فضميه بذراعيك الناعمتين وهذا فمى فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء .

قبل الانتحار

فى هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التى أحبها قلبى . إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألقت رأسها الجميل ، ومن هذه الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ، ممزوجة بقطرة من العطر .

كل ذلك قد كان بالأمس ، والأمس حلم لا يعود ، أما اليوم فقد ذهبت المرأة التى أحبها قلبى إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

إن آثار أصابع المرأة التى أحبها قلبى لم تزل ظاهرة على بلور مرآتى ، وعطر أنفاسها مابرح متضوعاً بين طيات أثوابى ، وصدى صوتها لم يضمحل بعد من زوايا منزلى — ولكن المرأة نفسها — المرأة التى أحبها قلبى قد رحلت إلى مكان قصى يدعى وادى الهجر والسلوان.أما آثار أصابعها وعطر لهاتها وأشباح روحها فستبقى فى هذه الغرفة حتى صباح الغد وعند ذلك أفتح نوافذ منزلى لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كل ماتركته لى تلك الساحرة الحسناء .

إن رسم المرأة التى أحبها قلبى لم يزل معلقاً بجانب مضجعى ، ورسائل الحب التى بعثت بها إلىّ مابرحت فى العلبة الفضية المرصعة بالعقيق والمرجان ، وذؤابة الشعر الذهبية التى حبتنى بها تذكاراً لم تخرج قط من

الغلاف الحريرى المبطن بالمسك والبخور — جميع هذه الأشياء ستبقى فى أماكنها حتى الصبح — وعند مجيء الصباح أفتح نوافذ منزلى ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء .

إن المرأة التى أحبها قلبى شبيهة بالنساء اللواتى أحبتهن قلوبكم أيها الفتيان . هى مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التى أحبها قلبى أيام الطفولة فكنت أركض وراءها فى الحقول وأتمسك بأذيالها فى الشوارع .

وعرفتها أيام الصبا فكنت أرى خيال وجهها فى وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم المساء وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقى .

وعرفتها أيام الرجولة فكنت أجالسها محدثاً وأسألها مستفتياً وأقترب منها شاكياً ما فى قلبى من الأوجاع باسطاً ما فى روحى من الأسرار .

كل ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود أما اليوم فقد ذهبت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

* * *

أما اسم المرأة التى أحبها قلبى فهو الحياة .

فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوى قلوبنا ، وتستغوى أرواحنا ، وتغمر وجداننا بالوعود ، فإن أمطلت أماتت فينا الصبر وإن أبرت

أيقظت فينا الملل .

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .

الحياة امرأة ترتدى الأيام البيضاء المبطنة بالليالى السوداء .

الحياة امرأة ترضى بالقلب البشرى خليلا وتأباه حليلا .

الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها .

يابنى أمى

ماذا تريدون منى يابنى أمى ؟

أتريدون أن أبنى لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام وهياكل مسقوفة بالأحلام أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجبناء وأنقض مارفعه المراؤون والخبثاء ؟

ماذا تريدون أن أفعل يابنى أمى ؟

أأهدل كالحمائم لأرضيكم أو أزمجر كالأسد لأرضى نفسى ؟

قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحت أمامكم فلم تبكوا فهل تريدون أن أترنم وأنوح فى وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعا وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية ولكنكم لاتأكلون وقلوبكم تختلج عطشاً ومناهل الحياة تجرى كالسواقى حول منازلكم فلماذا لاتشربون ؟

للبحر مد وجزر ، وللقمر نقص وكمال ، وللزمن صيف وشتاء.أما الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟

ناديتكم فى سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين « أين العدو لنصرعه ؟ » وعند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله

ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام .

قلت لكم : تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتم قائلين « فى أعماق هذا الوادى عاش آباؤنا وجدودنا وفى ظلاله ماتوا وفى كهوفه قُبروا فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا ؟ » .

قلت لكم : هلموا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز الأرض فأجبتم قائلين « فى السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق » .

قلت : تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطى البحر خيراته فأجبتم قائلين « ضجيج اللجة يخيف أرواحنا وهوى الأعماق يميت أجسادنا » .

* * *

لقد كنت أحبكم يابنى أمى وقد أضر بى الحب و لم ينفعكم . واليوم صرت أكرهكم والكره سيل لايجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية .

كنت أشفق على ضعفكم يابني أمى والشفقة تكثر الضعفاء وتنمى عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئاً. واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسى اشمئزازاً وتنقبض ازدراء .

كنت أبكى على ذلكم وانكساركم وكانت دموعى تجرى صافية كالبلّور ولكنها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزالت الغشاء عن عينى ولا بللت صدوركم المتحجرة بل أذابت الجزع فى قلبى — واليوم صرت أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجئ قبل العاصفة ولا تأتى بعدها .

ماذا تريدون منى يابنى أمى ؟

أتريدون أن أريكم أشباح وجوهكم فى أحواض المياه الهادئة ؟ تعالوا إذن وانظروا ما أقبح ملامحكم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة خدودكم فبانت كالخرق المتجعدة ، وقبل الموت شفاهكم فأمست صفراء كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون منى يابنى أمى ــ بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟.

أرواحكم تنتفض فى مقابض الكهان والمشعوذين وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين . فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصداء ورماحكم مكسورة الحراب وتروسكم مغمورة بالتراب فلماذا تقفون فى ساحة الحرب والقتال ؟ .

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء ؟

* * *

إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة وجد يلاحق الكهولة وحكمة تتبع الشيخوخة ، أما أنتم يابنى أمى فقد ولدتم شيوخا عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالا تتقلبون على الأوحال وتترامون بالحجارة .

إنما الإنسانية نهر بلورى يسير متدفقاً مترنماً حاملا أسرار الجبال إلى

أعماق البحر . أما أنتم يابنى أمى فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات فى أعماقها وتتلوى الأفاعى على جنباتها .

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة — أما نفوسكم يابنى أمى فرماد تذريه الرياح على الثلوج وتبدده العواصف فى الأودية .

أنا أكرهكم يابنى أمى لأنكم تكرهون المجد والعظمة .

أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .

أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لاتعلمون !! .

نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات .

نحن أبناء الكآبة ، والكآبة ظل إله لا يسكن فى جوار القلـوب الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة والحزن كبير لا تساعه النفوس الصغيرة . نحن نبكي وننتحب أيها الضاحكون ومن يغتسل بدموعه مرة يظل نقياً إلى نهاية الدهور .

أنتم لاتعرفوننا أما نحن فنعرفكم . أنتم سائرون بسرعة مع تيار نهر الحياة فلا تلتفتون نحونا أما نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم . أنتم لاتعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم ، أما نحن فنسمع أغانيكم لأن همس الليالى قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لأنكم واقفون فى النور المظلم أما أنتم فلا ترونا لأننا جالسون فى الظلمة المنيرة .

نحن أبناء الكآبة . نحن الأنبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من خيوط قلوبنا ملابس الآلهة فنملأ بحبات صدورنا حفنـات الملائكـة وأنتم ــ أنتم أبناء غفلات المسرات ويقظات الملاهى ــ أنتم تضعون قلوبكم بين أيدى الخلو لأن أصابع الخلو لينة الملامس وترتاحون بقرب الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم . نحن نتنهد ومع تنهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواق أما

أنتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرتقة القيود وعويل الهاوية .

نحن نبكى ودموعنا تنسكب فى قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل فى كبد الصباح . أما أنتم فتبتسمون ومن جوانب أفواهكم المبتسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع .

نحن نبكى لأننا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم وأنتم تضحكون لأنكم لاترون غير لمعان الذهب ، نحن نبكى لأننا نسمع أنة الفقير وصراخ المظلوم وأنتم تضحكون لأنكم لاتسمعون سوى رنة الأقداح ، نحن نبكى لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله وأنتم تضحكون لأن أجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب .

* * *

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات فهلموا نضع مآتى كآبتنا وأعمال مسراتكم أمام وجه الشمس .

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الأجيال عن خلودنا وفنائكم ، ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة ترددها الأمم فتباركنا وتلعنكم . أنتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء وها قد أصبحت بابل ونينوى نظير آثار أخفاف الإبل على رمال الصحراء . أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبين الحائمة فى الفضاء ، ورسمنا مريم بالخطوط والألوان

فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة .

أنتم تتبعون الملاهى وأظافر الملاهى مزقت ألف ألف من الشهداء فى مراسح رومية وأنطاكية ، ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة نسجت الإلياذة وسِفر أيوب والتائية الكبرى . أنتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفجور ، ونحن نعانق الوحدة وفى ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتى . أنتم تسامرون المطامع وأسياف المطامع أجرت ألف نهر من الدماء ، ونحن نرافق الخيال وأيدى الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى .

نحن أبناء الكآبة وأنتم أولاد المسرات ، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة لمسالك ضيقة المعابر لاتجتازها خيولكم المطهمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة .

نحن نشفق على صغارتكم وأنتم تكرهون عظمتنا ، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم .

نحن ندنو منكم كالأصدقاء وأنتم تهاجموننا كالأعداء ، وبين الصداقة والعداوة هوة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .

نحن نبنى لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد .

نحن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك،وبين أوراق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً أبديا .

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن .. تغلبوننا

ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ، ونغلبكم دهراً ونظل صامتين كالجبابرة . قد صلبتم الناصرى ووقفتم حوله تسخرون به وتجدفون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من عن صليبه وسار كالجبال يتغلب على الأجيال بالروح والحق ويملأ الأرض بمجده وجماله .

قد سممتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلى بن أبى طالب وخنقتم مدحت باشا ، وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية . أما أنتم فتعيشون فى ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لاتجد من يدفنها فى ظلمة النسيان والعدم .

نحن أبناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيراً ومعرفة ، وأنتم أبناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهى كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبددها العناصر .

أبناء الآلهة وأحفاد القرود

ما أغرب الدهر وما أغربنا ! فقد تغير الدهر وغيرنا وسار إلى الأمام وسيرنا ، وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرحنا .

كنا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نصحبه ونهواه ، بل صرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسراره وخفاياه .

بالأمس كنا ندب متحذرين كالأشباح المرتعشة بين أهوال الليل ومخاوف النهار ، فأصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو أم الجبال حيث تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة والرعود القاصفة .

كنا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المن من أيدى عرائس الصباح ونرشف الخمر معطرة بأنفاس الربيع .

بالأمس كنا ألعوبة فى يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملا يتلوى بنا إلى اليمين وإلى اليسار ، أما اليوم فقد صحا القضاء من سكره فأصبحنا نلاعبه فيلعب ونداعبه فيضحك ثم نقوده وراءنا فينقاد .

كنا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا أمام الآلهة الغضوبة ، أما اليوم فصرنا لانحرق بخوراً إلا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحة لغير ذواتنا لأن أعظم الآلهة وأبهاهم جمالا قد جعل هيكله فى صدورنا .

بالأمس كنا نخضع للملوك ونلوى رقابنا أمام السلاطين ، أما اليوم فصرنا لاننحنى إلا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى المحبة .

كنا بالأمس نخشع أبصارنا أمام الكهان ونتهيب رؤيا العرافين ، أما اليوم وقد تغير الدهر وغيرنا فأصبحنا لانحدق فى غير وجه الشمس ولا نصغى إلا لنغمة البحر ولا نهتز إلا مع الزوابع .

بالأمس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبنى من قوائمها قبوراً لأجدادنا ، أما اليوم فقد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لاتدنو منها أشباح القرون الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .

كنا فكراً صامتاً مختبئاً فى زوايا النسيان ، فأصبحنا صوتاً صارخاً ترتجف له أعماق القضاة .

كنا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد ، فصرنا ناراً متقدة فوق أكتاف الأودية .

* * *

وكم سهرنا الليالى متوسدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلف ورزق فقدناه . وكم صرفنا الأيام رابضين كنعاج لا راعى لها نقضم أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظل جائعين ظامئين . وكم وقفنا بين نهار زائل ومساءات ، نائحين على شباب ذابل مشتاقين إلى من لا نعرفه مستوحشين لأسباب نجهلها محدقين بفضاء خال مظلم ، مصغين إلى أنة السكون والعدم .

تلك أجيال مرت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، أما اليوم وقد صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نقضى الليالى البيضاء على أسرة علوية ،

مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين الأميال ، تتمايل حولنا شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير مرتعشة ، وتتصاعد حولنا أرواح الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، وتمر بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق قلوبنا ونسكرها بنغمة أرواحنا .

كنا بالأمس وأصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الآلهة بأبناء الآلهة ، فما هى إرادتكم يا أبناء القرود ؟

هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض ، أم رفعتم أبصاركم نحو الأعالى منذ فتحت الشياطين أبصاركم ؟ أم تلفظتم بكلمة من سفر الحق منذ قبلت أفواه الأفاعى أفواهكم ؟ أم أصغيتم هنيهة لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات فى زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت وراء بلور نافذتى فوجدتكم تسيرون فى الأزقة القذرة ، وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية تتمسك بأقدامكم ، وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم كما كنتم وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتكم فى البدء .

كنا بالأمس فأصبحنا اليوم ، وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة فما هى سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟

بين ليل وصباح

اسكت يا قلبى فالفضاء لا يسمعك .

اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك .

اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لاتقف أمام أحلامك .

اسكت يا قلبى ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً يلاقى الصباح قوياً . ومن يهوى النور فالنور يهواه .

اسكت يا قلبى واسمعنى متكلماً .

فى الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان ثائر .

ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .

ورأيت طفلا يلعب بالجماجم وهو يضحك .

رأيت جميع هذه الصور فى الحلم ولما استيقظت ونظرت إلى حولى رأيت البركان هائجاً ، ولكنى لم أسمع الشحرور مغرداً ولا رأيته مرفرفا .

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية ، ساتراً بأكفانه البيضاء أجسام الزنابق الهامدة .

ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينة الدهور ، وليس بينها من

يتمايل راقصاً ولا من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .

فى اليقظة رأيت الحزن والأسى فأين ذهبت أفراح الحلم ومسراته ؟

أنَّى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيها وآمالها ؟

أصغ يا قلبى واسمعنى متكلماً .

كانت نفسى بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها إلى أعماق الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسى فى الربيع وأثمرت فى الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها فى أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون فى سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله إلى الندب والولولة نظرت فلم أر فى أطباق سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لى ، فتناولتها وأكلتها . فألفيتها كالعلقم ، حامضة كالحصرم . فقلت لنفسى : « ويحى لقد وضعت فى أفواه الناس لعنة ، وفى أجوافهم عداء . فماذا ترى فعلت يانفسى بالحلاوة التى امتصتها عروقك من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذى تشربته قضبانك من نور الشمس ؟ » .

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسى القوية المسنة .

اقتلعتها بعروقها من التربة التى نمت فيها وترعرعت ، اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف خريف .

وعدت فزرعت شجرة نفسى فى مكان آخر .

(العواصف)

زرعتها فى حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلا إن السهر يدنينا من النجوم . وكنت اسقيها بدمى ودموعى قائلا إن فى الدم نكهة ، وفى الدموع حلاوة . ولما عاد الربيع أزهرت نفسى ثانية .

وفى الصيف أثمرت نفسى . ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة بأطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل . فمر الناس أفراداً وجماعات ولكن لم يمد أحد يده ليتناول منها .

فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذيذة كالكوثر ، طيبة كالخمرة البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين . فصرخت قائلا : « إن الناس لا يريدون البركة فى أفواههم ولا الحق فى أجوافهم ، لأن البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء » .

ثم عدت وجلست فى ظل شجرة نفسى المنفردة فى حقل بعيد عن سبل الزمن .

* * *

اسكت ياقلبى حتى الصباح .

اسكت ، فالقضاء قد أتخمته رائحة الأشلاء فلن يتشرب أنفاسك .

أصغ ياقلبى واسمعنى متكلماً .

كانت بالأمس فكرتى سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتتنقل مع الأهواء من شاطئ إلى شاطئ .

ولقد كانت سفينة فكرتى خالية إلا من سبعة أكواب طافحة بألوان مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها .

وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة

فكرتى الفارغة إلى ميناء البلد الذى ولدت فيه .

ثم أخذت أطلى جوانب سفينتى بألوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذوب الشقيق ، وأرسم على شراعها ودفتها رسوماً غريبة تجذب العين ، وتبهج البصيرة ولما انتهيت من عملى وقد ظهرت سفينة فكرتى كرؤيا نبى تطوف بين اللانهايتين ، البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدى فخرج الناس لملاقاتى بالتهليل والتعظيم ، وأدخلونى المدينة ضاربين الدفوف ، نافخين الزمور .

فعلوا ذلك لأن خارج سفينتى كان مزخرفاً بهجاً ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتى .

ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار ؟

ولم يدر أحد أنى عدت بها فارغة إلى الميناء .

عند ذلك قلت فى سرى : « لقد ضللت الناس . وبسبعة أكواب من الألوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم .

وبعد عام ركبت سفينة فكرتى وأبحرت ثانية .

سرت إلى جزر الشرق فجمعت منها المر واللبان والند والصندل وأدخلتها إلى سفينتى .

وإلى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة .

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشى والبرقير .

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة والسيوف المشرقية والرماح السمهرية وسائر أنواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكرتى بنفائس الأرض وغرائبها وعدت إلى ميناء بلدى قائلا : سوف يمجدنى قومى ، ولكن عن جدارة . وسيدخلونى المدينة منشدين مزمرين ولكن عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاتى ، ودخلت شوارع بلدى فلم يلتفت إلىّ أحد .

ووقفت فى ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض وطرائفها فكانوا ينظرون إلىّ والضحك ملء أفواههم والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عنى .

فعدت إلى الميناء كئيباً مستغرباً . ولكننى مالمحت سفينتى حتى فطنت لأمر كنت مشغولا عنه بمنازع أسفارى ورغائبها . فهتفت قائلا : « إن أمواج البحار قد محت الطلاء من جوانب سفينتى فبانت كهيكل من عظام ، وعفت الأرياح والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن شرائعها فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الأرض ونفائسها فى تابوت يعوم على وجه الماء وعدت إلى قومى فنبذونى لأن عيونهم لاترى سوى المظاهر الخارجية .

فى تلك الساعة تركت سفينة فكرتى وذهبت إلى مدينة الأموات وجلست بين القبور المكلسة مفكراً بأسرارها .

اسكت ياقلبى حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس أعمالك ، وكهوف الوادى لن ترجع بصداها رنات أوتارك .

اسكت يا قلبى حتى الصباح . فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبى فتكلم إن كنت تستطيع الكلام .

هو ذا موكب الصباح يا قلبى فهل أبقى سكوت الليل فى أعماقك أغنية تلاقى بها الصباح ؟

هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير فى أطراف الوادى ، فهل أبقى هول الليل فى جنحيك صلابة لتطير معها ؟

هو ذا الرعيان يسيرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض فهل أبقت لك أشباح الليل عزماً لتسير وراءها إلى المروج الخضراء ؟

هو ذا الفتيان والصبايا يمشون الهويناء نحو الكووم فهلاّ نهضت ومشيت معهم ؟ قم يا قلبى . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . ومخاوف الليل قد اضمحلت مع أحلامه السوداء .

قم يا قلبى وارفع صوتك مترنماً فمن لا يشارك الصبح بأغانيه كان من أبناء الظلام .

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون » .

« هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة » .

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين » .

« قهراً عما في أسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء الإنسانية » .

« هو فوضوي كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على نفوسهم » .

« قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم في الدسم » .

* * *

هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى الجنون ، أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء ، وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم

وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . أما قول بعضهم إن كتاباتى « سم فى دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ، فالحقيقة العارية هى أننى لاأمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صرفاً .. غير أننى أسكبه فى كؤوس نظيفة شفافة .

أما الذين يعتذرون عنى أمام نفوسهم قائلين « هو خيالى يسبح مرفرفاً بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما فى داخلها من الشراب الذى يدعونه « سماً » لأن معدهم الضعيفة لاتهضمه .

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانه بنعومتها ؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخيانة فترتدى بملابس فصلت لغيرها .

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التى تطوف مرفرفة فى الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع أقراصاً من العسل .

إن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيبون سواه مأكلا . وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد إلا إذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لايكتفون . ففى أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبى ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنئون أكثر طلاوة من صفى الدين الحلّى .

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث فى تاريخ آبائهم وجدودهم ، متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين مطولات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومبانى معانيهم وبيانهم وبديعهم .

ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن رشد وإفرام السريانى ويوحنا الدمشقى ، وأن لايتعدى بكتاباته حدود الوعظ البليد والإرشاد السقيم وما يجئ بينهما من الحكم والآيات التى إذا ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التى تنبت فى الظل ، ونفسه كالماء الفاتر الممزوج بقليل من الأفيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون فى مسارح الماضى الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية الفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المجردة التى تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة .

* * *

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم وألف الألم وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية .

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتآمرون فى شأنه ولكنهم لايداوونه بغير المخدرات الوقتية التى تطيل زمن العلة ولا تبرئها .

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متباينة الألوان ، وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات

عن بعضها بعضاً . وكلما ظهر فى الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً .

وأما الأسباب التى آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تهييج الألم الذى تحدثه الأدوية الناجعة .

وإليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التى يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية .

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ، ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على إيجاد السلام بين الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملفقة التى تخجلها ولا تقنعها ، ثم يستدعوا الرجل يغمروا رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التى تلين أفكاره ولا تغيرها . و يتم الصلح — الصلح الوقتى — بين الزوجين المتنافرين بالرو قهراً عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتى « يبوخ ويزول تأثير المخدر الذى استخدمه الأهل والأنسباء ، فيعود اا إظهار نفوره ومقته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها . غير أوجدوا الصلح فى المرة الأولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق .

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون إصلاحية » ترمى إلى النهوض والانعتاق فيخطبون بشجاعة

بحماسة وينشرون « اللوائح والبرامج » ويبعثون « الوفود والممثلين » ، ولكن لايمر شهر أو شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت إليه بوظيفة ، أما الجمعية « الإصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لأن أفرادها قد تجرعوا قليلا من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام .

تتمرد طائفة على رئيس دينها لأمور أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتتبرم من مآتيه ، ثم تهدده باعتناقها مذهبا آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات . ولكن لايمر ردح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعى ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس المرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره « اسكت فالعين التى تعاند السهم تفقأ » .

يشك القروى بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله « اصمت فقد جاء فى الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم » .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له أستاذه إن الكسالى والمتوانين يختلقون لنفوسهم أعذاراً أقبح من الذنوب » .

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها ، فالطريق التى سلكتها تسلكينها أنت أيضاً » .

يسأل الشباب مستفسراً معانى الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من

لا ينظر بعين الإيمان لا يرى فى هذا العالم سوى الضباب والدخان » .

وهكذا تمر الأيام إثر الليالى والشرق مضطجع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلا بحكم المخدرات التى تمازج دمه وتسير فى عروقه . فإذا ماقام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج ، يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدى ثم يقولون متثائبين « ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس أن يناموا » ، ثم يغمضون عيونهم ويهمسون فى آذان أرواحهم « هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مبانى الأجيال ويرشق الإنسانية بالسهام السامة » .

قد سألت نفسى مرات إذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات ، فكانت نفسى تجيبنى بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكننى لما سمعت الناس يجدفون على اسمى ويتأففون من مبادئ أيقنت بحقيقة يقظتى وعلمت أننى لست من المستسلمين إلى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة ، بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والأزهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعنى الاحتشام عن ادعائها ، ولكنها ليست بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير أمامها فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين بمعانيها المهيبة .

وعندى أن الاحتشام فى إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء

الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

* * *

غداً يقرأ « الأدباء المفكرون » ما تقدم ، فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام ، وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا » .

فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول — أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق .

أنا أبكي على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب .

أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء .

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه ظنون الناس وتقولاتهم .

أنا أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى .

فإن كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ويحول اشمئزازي إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال ، فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكماً عادلا ومتشرعاً مستقيما ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر إلى امراته بالعين التي يرى بها نفسه .

إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني متطبلا ومزمراً فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر .

* * *

السرجين المفضض

١

سلمان أفندى :

هو رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معكوفين ، وحذاء لامع ، يلبس الأجربة الحريرية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويحمل بيده الناعمة عصاة جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل فى المطاعم الكبيرة حيث يلتئم سراة القوم وأشرافهم ، ويذهب إلى المنتزهات المشهورة فى مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان .

و لم يرث سلمان أفندى المال عن أبيه لأن أباه رحمه الله كان رجلا فقيراً مسكيناً ، ولا جدَّ متاجراً فاكتسب ثروة لأنه كسلان متوان يكره العمل ويظنه محطاً بمقامه . وقد سمعناه مرة يقول « إن جسدى وأخلاقى لا تساعدانى على الشغل فالشغل قد وجد لذوى الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة » .

إذًا كيف حصل سلمان أفندى على المال ، وأى ساحر حول التراب فى كفيه إلى فضة وذهب ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض ، أعلنه لنا عزرائيل ونحن

بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوج سلمان أفندى من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذى اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة ، وقد كانت حينئذ السيدة فهيمة فى الخامسة والأربعين من عمرها وفى السادسة عشر من سنى عواطفها وأميالها ، وهى الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلى وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لاترى سلمان أفندى قبل نصف الليل ، وقلما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التى جمعها زوجها الأول بكده وعرق جبينه .

٢

أديب أفندى :

فتى فى السابعة والعشرين من عمره . ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قذر ويدين ملطختين بالحبر وأظافر محشوة بالأوساخ . أما ملابسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيها بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات إهماله وانشغال باله بالأمور المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الإلهية ... وقد سمعناه يقول مستشهداً بأمين الجندى « إن القريحة لاتنصرف إلى شيئين » أى أن الأديب لا يستطيع أن يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة فى وقت واحد !

أديب أفندى يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً فهو منصرف عن كل شيء إلا الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامين فى إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ، ولكنه للآن لم ينشر منها شيئاً لأسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغباوة القراء !

وقد انصرف أديب أفندى فى الآونة الآخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثة فهو معجب بسقراط ونيتشى فى وقت واحد ! ويميل إلى أقوال القديس أغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو ، وقد لقيناه مرة فى عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناه مرة أخرى سائراً فى جنازة وجيه والمشيعون يمشون إلى جانبه برؤوس مخفضة وملامح مكتئبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبى النواس وغزليات الفارض !

لماذا ياترى يعيش أديب أفندى وما الغرض من صرفه الأيام والليالى بين الكتب القديمة والأوراق البالية ؟ ولماذا لا يقتنى له حماراً ويصير من عداد المكارين الأقوياء النافعين ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا بعلزبول ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندى قصيدة خلق فى مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه فى دار حبيب بك سلوان ، ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسما « عفاك الله

يا ابنى فما أبلغك شاعراً وما أذكاك أديباً . فأنا أفتخر بأمثالك بأنك ستكون من رجال الشرق الكبار » .

ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أفندى وعمه وخاله ينظرون إليه معجبين ، ويتحدثون عنه مفاخرين قائلين « أوَ لم يقل المطران يوحنا شمعون إنه سيكون من رجال الشرق العظام ؟ » .

٣

فريد بك دعيبس .

هو رجل يناهز الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشى متثاقلا بصدر منتفخ وعنق مستطيل ولخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقل هودجا . وعندما يتكلم بصوته الجهورى وأسلوبه الفخم تخاله — إن لم تكن تعرفه — أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمين بتكييف أمور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس فى صدور المحافل وتعداد مآتى أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم . وهو مغرم بسبر أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنابليون وعنترة العبسى ، وله ولع خاص بالأسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لايحسن استعمالها !

ومن أقواله المأثورة « أن الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها

للرئاسة ومنها للخدمة » ومنها « إنما الشعب حمار حرون لا يسير إلا إذا علوت ظهره » ومنها « القلم للضعفاء أما السيف فللأشداء .. » .

وما هى الأسباب التى تجعل فريد بك أن يتمجد متغطرسا ويتجبر متعجرفا ويزهو مختالا متبذخاً متبجحاً .

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير بشير الشهابى سائراً بكوكبة من رجاله بين أودية لبنان ، مرّ بقرب القرية التى كان يقطنها منصور دعيبس جد فريد بك دعيبس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الأمير قائلا لرجاله (تعالوا نرتاح فى ظلال السنديانة) .

وعلم منصور دعيبس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيبس وقبل أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشاً أمامه وهتف قائلا « هذا من خير أميرنا وولى نعمتنا » .

فسر الأمير بأريحيته وخلع عليه قائلا « ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولا بنظرى الخصوصى . وقد أعفيت سكان قريتك من الأموال الأميرية فى هذه السنة » .

فى تلك الليلة بعد أن تابع الأمير سيره اجتمع فى بيت « الشيخ » منصور دعيبس جميع سكان القرية ونادوا به رئيسا مطاعاً فى السراء

والضراء — رحمهم الله جميعاً .

* * *

وللسرجين المفضض أسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والأبالسة فى كل يوم وليلة ، وسوف نظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر إلى ماوراء الشفق الأزرق . أما الآن وقد انتصف الليل وملَّت أجفاننا السهر فاسمحوا لنا أن ننام لعل عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من هذا العالم .

رؤيا

عندما جن الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تـركت مضجعي وسرت نحو البحر قائلا فى نفسى « البحر لا ينام . وفى يقظة البحر تعزية لروح لا تنام » .

بلغت الشاطئ وكان الضباب قد انحدر من أعالى الجبال وغمر تلك النواحى مثلما يوشى النقاب الرمادى وجه الصبية الحسناء . فوقفت محدقاً بجيوش الأمواج مصغياً إلى تهاليلها ، مفكرا بالقوى السرمدية الكامنة وراءها . تلك القوى التى تركض مع العواصف وتثور مع البراكين وتبتسم بثغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قـريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم ببطء كأن فى كيانهم جاذباً يستميلنى قسر إرادتى .

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن فى المكان سحراً أجمد ما بى من العزم وأيقظ ما فى روحى من الخيال .

فى تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة . وبصوت خلته آتياً من أعماق البحر قال :

ــ « الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار . والحب بغير

الجمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور .. الحياة والحب والجمال — ثلاثة أقانيم فى ذات واحدة مستقلة ، مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال ». قال هذا وجلس فى مكانه .

ثم انتصب الشبح الثانى ، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :

— « الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير حق كالربيع فى الصحراء القاحلة الجرداء .. الحياة والتمرد والحق — ثلاثة أقانيم فى ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير » .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصف الرعد قال :

— « الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة .. الحياة والحرية والفكر ، ثلاثة أقانيم فى ذات واحدة أزلية لا تزول ولا تضمحل » .

ثم وقف الأشباح الثلاثة وبأصوات هائلة قالوا معاً :

— « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجده . والحرية وما تنميه — ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل » .

وحدث إذ ذاك سكوت مفعم بحفيف أجنحة غير منظورة وارتعاش أجسام أثيرية ، فأغمضت عينى مصغياً إلى صدى الأقوال التى سمعتها . ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أر غير البحر متشحاً بدثار الضباب ، فاقتربت من الصخرة حيث كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أر إلا عموداً من البخور متصاعداً نحو السماء .

فى ظلام الليل

ـــ كتبت أيام المجاعة ـــ

فى ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .

فى ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب فى وسطنا . وأجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا . أما عيناه الملتهبتان فمحدقتان بالشفق البعيد .

فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين منتحبين وليس بيننا من يستطيع الوقوف ، وليس فينا من له أمل بالوقوف .

فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلما التفت الموت إلى الوراء يسقط منا ألف إلى جانبى الطريق ، ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ، ومن لا يسقط يسير قسر إرادته عالماً بأنه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا . أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد .

فى ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلنا جائعون لاغبون متضورون . أما الموت فلا يجوع ولا يعطش فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوى .

فى الهزيع الأول من الليل ينادى الطفل أمه قائلا « يا أماه أنا جائع » فتجيبه الأم قائلة « اصبر قليلا يا ولداه » .

وفى الهزيع الثانى ينادى الطفل أمه ثانية قائلا « يا أماه أنا جائع فأعطينى خبزاً » فتجيبه « ليس لدى خبز يا ولداه » .

فى الهزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق ، أما الموت فيظل سائرا محدقاً بالشفق البعيد .

فى الصباح يذهب الرجل إلى الحقول طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهيرة يعود إلى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين .

ولما يجىء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد .

فى الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب إلى المدينة وفى جيبه حلى أمه وأختيه ليبتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود إلى قريته بلا قوت ولا حلى فيجد أمه وابنتيها راقدات أما عيونهن فلم تزل شاخصة باللاشىء ، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثم يهبط إلى الحضيض كطائر رماه الصياد . وفى المساء يمر الموت بقرب الفلاح وأمه وأختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد .

فى ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، نناديكم أيها السائرون فى نور النهار فهل أنتم سامعون صراخنا ؟ .

قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلا فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟ وحملنا الهواء الشرقى من أنفاسنا حملا فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة وألقى بين يديكم أحماله الثقيلة ؟ هل عرفتم مابنا فقمتم تسعون لإنقاذنا أم وجدتم نفوسكم فى سلامة وطمأنينة فقلتم « ماذا عسى يستطيع الجالسون فى

النور أن يفعلوا لأبناء الظلام ، فلندع الموتى أن يدفنوا أمواتهم ولتكن مشيئة الله » .

أى ، لتكن مشيئة الله .

ولكن هلا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق نفوسكم ليصيركم الله مشيئة له وعوناً لنا ؟ .

فى ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .

فى ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأم ابنها والزوج زوجته والمحب حبيبته ، وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكا منا مستهزئاً بنا ثم يسير محدقا بالشفق البعيد .

الأضراس المسوسة

كان فى فمى ضرس مسوس ــ وكان يحتال على تعذيبى فيسكن متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً فى هدوء الليل عندما يكون أطباء الأسنان نائمين والصيدلية مقفلة .

ففى يوم وقد نفد صبرى ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت له « ألا فانزعه ضرساً خبيثاً يحرمنى لذة الرقاد ويحول سكينة ليالىّ إلى الأنين والضجيج » .

فهز الطبيب رأسه قائلا « من الغباوة أن نستأصل الضرس إذا كان بإمكاننا تطبيبه » .

ثم أخذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتفنن بتطهيره من العلة . ولما وثق بأنه صار خالياً من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص ثم قال مفاخراً « لقد أصبح ضرسك العليل أشد وأصلب من أضراسك الصحيحة » فصدقت كلامه وملأت حفنته بالدنانير وذهبت فرحاً .

ولكن لم يمر الأسبوع حتى عاد الضرس المشؤوم إلى تعذيبى وإبدال أنغام روحى بحشرجة الاحتضار وعويل الهاوية .

فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم « ألا فاخلعه ضرساً مذهباً شريراً ــ ولا تعترض (فمن يأكل العصىّ لا كمن

يعدها».

فنزع الطبيب الضرس وقد كانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنها كانت ساعة مباركة .

وقد قال لى الطبيب بعد أن استأصل الضرس وتفحصه جيداً « لقد فعلت حسناً — فالعلة قد تحكمت بأصول ضرسك هذا حتى لم يبق رجاء بشفائه ».

وقد نمت مرتاحاً فى تلك الليلة — ولم أزل فى راحة والحمد للخلع والاستئصال . فى فم الجامعة البشرية أضراس مسوسة وقد نخرتها العلة حتى بلغت عظم الفك ، غير أن الجامعة البشرية لاتستأصلها لترتاح من أوجاعها بل تكتفى بتمريضها وتنظيف خارجها وملء ثقوبها بالذهب اللماع .

وما أكثر الأطباء الذين يداوون أضراس الإنسانية بالطلاء الجميل والمواد البراقة . وما أكثر المرضاء الذين يستسلمون إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثم يموتون بعلتهم مخدوعين .

غير أن الأمة التى تعتل ثم تموت لاتبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنوية وماهية الأدواء الاجتماعية التى تؤول بالأمم إلى الانقراض والعدم .

* * *

وفى فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة ، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالمينا وإلباس خارجها رقوق الذهب ولكنها لاتشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والأمة التى تكون

أضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة ، وكم أمةٍ ذهبت شهيدة عسر الهضم .

ومن شاء أن يرى أضراس سورية المسوسة فليذهب إلى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلا عن سيبويه ، وسيبويه عن سائق الأظعان .

أو فليذهب إلى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلوانى بالقضايا الشرعية مثلما تلعب القطة بصيدها .

أو فليذهب إلى منازل الموسرين حيث التصنع والكذب والرياء .

أو فليذهب إلى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة .

وبعد ذلك فليذهب إلى أطباء الأسنان ذوى الأسنان ذوى الأصابع الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة ، الذين يصرفون الأيام بإملاء ثقوب الأضراس المسوسة وتطهير زواياها المعتلة ، وإذا أراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون فى النوادى والساحات ، ففى حديثهم نغمة أسمى من أناشيد حجر الرحى وأنبل من أغانى الضفادع فى ليالى تموز .

ولكن إذا قال لهم « إن الأمة السورية تقضم قوت الحياة بأضراس مسوسة ، وإن كل لقمة تلوكها تمتزج بلعاب مسمم وأنه قد نتج عن ذلك مرض فى أمعائها » . إذا قال هذا يجيبونه بقولهم « نعـم ونحن الآن منصرفون إلى درس أحدث المساحيق وأجد المخدرات » .

وإذا قال لهم « ماقولكم بالاستئصال ؟ » يضحكون منه لأنه لم يدرس طب الأسنان الشريف .

وإذا أعاد السؤال ثانية يبتعدون عنه متضجرين قائلين فى نفوسهم « ما أكثر الخياليين فى هذا العالم وما أوهى أحلامهم ! » .

* * *

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام فشعشعت الأنوار فى القصور والمنازل وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لهاثهم تنبعث رائحة المآكل والخمور ...

أما أنا فسرت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج أفكر بصاحب العيد .

أفكر بنابغة الأجيال الذى ولد فقيراً وعاش متجرداً ومات مصلوباً ...

أفكر بالشعلة النارية التى أوقدها الروح الكلى فى قرية حقيرة بسوريا ، فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية ...

ولما بلغت الحديقة العمومية ، جلست على مقعد خشبى أنظر من خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدحمة وأسمع عن بعد أناشيد المعيدين السائرين فى موكب اللهو والخلو ..

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفت وإذا برجل جالس بقربى على المقعد وفى يده عصاه يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب .. فقلت فى نفسى « هو مستوحد مثلى » ثم تفرست إليه متبصراً شكله

فألفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوش ذا هيبة ووقار .. وكأنه قد شعر بأننى أنظر إليه متفحصاً شكله وملامحه فالتفت نحوى وقال بصوت عميق هادئ « مساء الخير » فأرجعت التحية قائلا « أسعد الله مساءك » .

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الأرض ، وبعد هنيهة وقد أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلا : « هل أنت غريب فى هذه المدينة ؟ » .

فأجاب « أنا غريب فى هذه المدينة وأنا غريب فى كل مدينة أخرى » .

قلت « إن الغريب فى مثل هذه المواسم يتناسى مافى الغربة من الضيم والوحشة لما يجده فى الناس من الأنس والانعطاف » .

فأجاب « أنا غريب فى مثل هذه الأيام أكثر منى فى غيرها » .

قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادى فاتسعت عيناه وارتعشت شفتاه كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد ..

قلت « إن القوم فى هذه المواسم يعطفون على بعضهم البعض فالغنى يذكر الفقير والقوى يرحم الضعيف » .

فأجاب « نعم وما رحمة الغنى بالفقير سوى نوع من حب الذات وليس انعطاف القوى على الضعيف إلا شكلا من التفوق والافتخار » .

قلت « قد تكون مصيباً ، ولكن ماذا يهم الفقير الضعيف ما يجول فى باطن الغنى القوى من الرغائب والأميال ؟ . إن الجائع المسكين يحلم بالخبز ولكنه لا يفكر بالكيفية التى يعجن بها الخبز » .

فأجاب « إن الموهوب لا يفتكر أما الواهب فيجب عليه أن يفتكر ويفتكر طويلا » .

فأعجبت بكلامه وعدت أتأمل منظره الغريب وأثوابه القديمة ..

وبعد سكينة نظرت إليه قائلا « يلوح لى أنك فى حاجة فهلا قبلت درهماً أو درهمين ؟ » .

فأجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة محزنة « نعم أنا بحاجه ولكن إلى غير المال » .

قلت « وماذا تحتاج ؟ » .

فقال « أنا بحاجة إلى مأوى .. أنا بحاجة إلى مكان أسند إليه رأسى » .

قلت « خذ منى درهمين واذهب إلى النزل واستأجر غرفة » .

فأجاب « قد ذهبت إلى كل نزل فى هذه المدينة فلم أجد لى مأوى ، وطرقت كل باب فلم أر لى صديقاً ، ودخلت كل مطعم فلم أعط خبزاً » .

فقلت فى نفسى : ماأغربه فتى يتكلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون .

ولكن لم أهمس لفظة « مجنون » فى أذن روحى حتى حدق بى شاخصاً ورفع صوته عن ذى قبل وقال « نعم أنا مجنون ومن كان مثلى يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام » .

قلت مستدركا مستغفراً « سامح ظنونى فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك ، فهلا قبلت دعوتى وذهبت معى لتصرف الليلة فى منزلى ؟ » .

فأجاب « قد طرقت بابك ألف مرة و لم يفتح لى » .

قلت وقد تحققت جنونه « تعال الآن واصرف الليلة فى منزلى ؟ » .

فرفع رأسه وقال « لو عرفت من أنا لما دعوتنى ؟ » .

فقلت « ومن أنت ؟ » .

قال وفى صوته هدير مياه غزيرة « أنا الثورة التى تقيم ما أقعدته الأمم . أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التى أنبتتها الأجيال . أنا الذى جاء ليلقى فى الأرض سيفاً لا سلاماً » .

ووقف منتصباً وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر المسامير فى كفيه : فارتميت راكعاً أمامه وصرخت قائلا « يايسوع الناصرى ... » .

وسمعته يقول إذ ذاك « العالم يعيد لاسمى وللتقاليد التى حاكتها الأيام حول اسمى . أما أنا فغريب أطوف تائهاً فى مغارب الأرض ومشارقها وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتى » .

للثعالب أوجرة و لطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أن يسند رأسه .

ورفعت رأسى إذ ذاك ونظرت فلم أر أمامى سوى عمود من البخور و لم أسمع سوى صوت الليل آتيا من أعماق الأبدية .

* * *

الجبابرة

ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب وليس السكوت الذى يحدثه الملل كالسكوت الذى يوجده الألم .

أما أنا فقد سكت لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء وأنينهم إلى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف عندما تتكلم القوى الكامنة فى ضمير الوجود ـــ تلك القوى التى لا ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً .

نحن الآن فى زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ماتقدمه . فالأمور التى كانت تشغل أفكارنا وأميالنا وعواطفنا قد انزوت فى الظل . والمسائل والمشاكل التى كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء نقاب من الإهمال . أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التى كانت تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحل محلها جبابرة تسير كالعواصف وتتمايل كالبحار وتتنفس كالبراكين .

وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهى الجبابرة من صراعها ؟ .

هل يعود القروى إلى حقله فيلقى البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى ؟ .

هل يقود الراعى مواشيه إلى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها

مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد فى هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر قصائده أمام كواكب حُجبت بالدخان ، وينغم المنشد أغانيه فى ليل عانقت سكينته الأهوال ؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بالهدوء أغانى النوم وهى لا ترتجف وجلاً مما سيجلبه الغد ؟ .

هل يلتقى الحبيب بحبيبته ويتبادلان القبل حيث التقى العدو بعدوه وتبادلا القذائف ؟ .

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضاءها المكلومة ؟ .

ليت شعرى ! هل يعود نيسان إلى الحقول ؟ .

* * *

وماذا عسى تصير إليه بلادكم وبلادى ؟ وأى من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التى أنبتتنا وصيرتنا رجالا ونساء أمام وجه الشمس ؟ .

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغائر الذئاب وحظائر الخنازير ، أو ياترى تنتقل مع العاصفة إلى عرين الأسد أو ذروات النسر ؟ .

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟ .

كلما خلوت بنفسى أطرح عليها هذه السؤالات ، غير أن النفس كالقضاء تبصر ولا تتكلم وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهى ذات عيون تتجلى وأقدام تتسارع ، أما لسانها فثقيل .

ومن منكم أيها الناس لم يسأل نفسه فى كل يوم وليلة عن مصير

الأرض وسكانها بعد أن تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام ؟ .

أنا من القائلين بسنة النشوءوالارتقاء ، وفى عرفى أن هذه السنة تتناول بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنتقل بالأديان والحكومات من الحسن إلى الأحسن ، انتقالها بالمخلوقات كافة من المناسب إلى الأنسب ، فلا رجوع إلى الوراء إلا فى الظاهر ولا انحطاط إلا فى السطحى .

ولسنة الارتقاء سبل متشعبه يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة الأصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتتمرد عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة متمسكة بحق أسمى من حقوق الأفراد ، محدِقة بغرض أعلى من مرام الجماعة ، مصغية إلى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصات المتوجعين .

حولى بكل مكان أقزام يرون عن بعد أشباح الجبابرة متناضلين ويسمعون فى المنام صدى تهاليلهم فيضجعون كالضفادع قائلين : قد رجع العالم فى فطرية الوضيعه . فما بنته الأجيال بالعلم والفن قد هدمه الإنسان الوحشى بالطمع والأنانية ، فحالنا اليوم حال سكان الكهوف ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحين نستخدمها للهلاك ؟ .

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم ويحللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التى يستخدمونها لحفظ وجودهم الفردى فكأن الشمس لم تكن إلا لتدفئتهم ، وكأن البحر لم يوجد إلا لغسل أرجلهم .

* * *

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق السكون المدبر حيث تصان أسرار الكون المدبر ، قد انبثقت الجبابرة كالريح وتصاعدوا كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال ، وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة فى الأرض لا يحلها غير الصراع .

أما البشر وكل ما فى رؤوسهم من المدارك والمعارف ، وما فى قلوبهم من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والأوجاع ، فآلات يتناولها الجبابرة ويديرونها توصلا إلى غاية علوية لابد من بلوغها .

أما الدماء التى أهرقت فسوف تجرى أنهاراً كوثرية ، وأما الدموع التى نثرت فستنبت أزهاراً زكية ، وأما الأرواح التى فاضت فسوف تجتمع وتتألف وتتطلع من وراء الأفق الجديد صباحا جديداً ، فيعلم الناس بأنهم قد ابتاعوا الحق فى سوق البؤس وأن من ينفق فى سبيل الحق لم يخسر .

* * *

مات أهلي

(كتبت أيام المجاعة)

مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي فى وحدتى وانفرادى .

مات أحبائى وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم .

مات أهلي وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ، وأنا ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلي وأحبائى جالسين على منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس .

مات أهلي جائعين ومن لم يمت جوعاً قضى بحد السيف ، وأنا فى هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام والأيام تضحك لهم .

مات أهلي أذل ميتة وأنا ههنا أعيش فى رغد وسلام ، وهذه المأساة المستتبة على مسرح نفسى .

لو كنت جائعا بين أهلي الجائعين مضطهداً بين قومى المضطهدين لكانت الأيام أخف وطأة على صدرى ، والليالى أقل سواداً أمام عينى . لأن من يشارك بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التى يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لأنه يموت بريئاً مع الأبرياء .

ولكنني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين فى موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش فى ظل الطمأنينة وخمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتى ولا بدموعى .

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد أن يقول لأهله الجائعين .

ليت شعرى ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟ .

لو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى لكان الطفل الجائع يلتقطنى ويزيل بحباتى يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة فى بساتين بلادى لكانت المرأة الجائعة تتناولنى وتقضمنى طعاماً .

لو كنت طائرا فى فضاء بلادى ، لكان الرجل الجائع يصطادنى ويزيل بجسدى ظل القبر عن جسده .

ولكن ، واحر قلباه ، لست بسنبلة من القمح فى سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة فى أودية لبنان . وهذه هى نكبتى الصامتة التى تجعلنى حقيراً أمام نفسى وأمام أشباح الليل .

هذه هى المأساة الموجعة التى تعقد لسانى وتكبل يدى ثم توقفنى بلا عزم ولا إرادة ، ولا عمل .

* * *

يقولون لى ـــ ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التى هرقت فى بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلا ونهاراً فى أودية الأرض وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادى نكبة خرساء ـــ نكبة بلادى جريمة حبلت بها رؤوس الأفاعى والثعابين ـــ نكبة بلادى مأساة بغير أناشيد ولا مشاهد .

لو ثار قومى على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت إن الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الأبدية والسيف فى يده كان خالداً بخلود الحق .

لو اشتركت أمتى بحرب الأمم وانقرضت عن بكرة أبيها فى ساحة القتال لقلت هى العاصفة الهوجاء تهصر بعزمهـا الأغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعى الشيخوخة .

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادى صدراً وغمر التراب أهلى وأحبائى لقلت هى النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .

مات أهلى على الصليب .

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم .

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مسالمين .

ماتوا جوعاً فى الأرض التى تدر لبناً وعسلا .

ماتوا لأن الثعبان الجهنمى قد التهم كل ما فى حقولهم من المواشى وما فى أهرائهم من الأقوات .

ماتوا لأن الافأعى أبناء الأفاعى قد نفثوا السموم فى الفضاء الذى كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين .

* * *

مات أهلى وأهلكم ، أيها السوريون ، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم يمت منهم .

إن نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لاتروى غليلهم إذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟ .

هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

إن العاطفة التى تجعلك ، يا أخى السورى ، أن تعطى شيئاً من حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته ، هى هى الأمر الوحيد الذى يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل .

وإن الدرهم الذى تضعه فى اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة الذهبية التى تصل مافيك من البشرية بما فوق البشرية .

* * *

الأمم وذواتها

الأمة مجموع أفراد متبايني الأخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعم من الآراء .

وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة ، غير أن الخلاف فى العقيدة لا يحل الروابط الأممية إلا إذا كانت ضعيفة واهية كما هى معنوية أقوى من الأخلاق فى البلاد الشرقية .

وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسياً لإيجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع أنها فى خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعية .

وقد تكون الوحدة الدموية أساساً لهذه الرابطة ، ولكن فى التاريخ أمثلة عديدة نستدل منها على أن أفخاذ عنصر واحد انشقت بعضها على بعض ، وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثم الاضمحلال .

وقد تكون المصلحة المادية نولا تحاك عليه تلك الرابطة ، ولكن شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة .

إذن ما هى تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هى التربة التى تنبت فيها أنصاب الأمم ؟ .

لى رأى فى الرابطة الأممية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً ، لأن

أصوله . ونتائجه ليست من الأمور المحسوسة .

أما رأيى فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد ، و مع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهى مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وإرادة منفردة .وكما يصعب علىّ تحديد وتعيين الزمن الذى تتولد فيه ذات الفرد الواحد ، هكذا يصعب على تعيين وتحديد الزمن الذى تتولد فيه الذات العامة غير أننى أشعر أن الذات المصرية — مثلا — قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لايقل عن خمسمائة سنة . ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية . وما أقوله عن مصر يصح فى آشور وفارس واليونان ورومة والعرب وغيرها من الأمم الحديثة ، أعنى تلك التى ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة .

قلت إن للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل حى عمر محدود كان لتلك الذات العامة أجل محدود لاتتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردى من الطفولة إلى الشبيبة إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموحشة بنقاب النوم ، إلى يقظة الظهر المتجلية بنو ر الشمس ، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، إلى سبات عميق .

إن الذات اليونانية قد استيقظت فى القرن العاشر قبل المسيح ومشت بعزم وجلال فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولما بلغت عهد الناصرى

كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبدية لتعانق أحلام الأبدية .

أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصى فى القرن الثالث قبل الإسلام ، ولم تتمخض بالنبى محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف فى سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لاعداد لها أولها فى الهند وآخرها فى الأندلس . ولما بلغت عصارى نهارها ، وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقى خفياً فى نفسها . كما عادت الذات الرومانية فى زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس وأكملت فى البندقية وفلورنسا وميلان ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية فى بدء الأجيال المظلمة .

وأغرب الذوات العامة فى التاريخ هى الذات الفرنساوية ، فهى قد عاشت ألفى سنة أمام وجه الشمس ولم تزل فى شبيبة نضرة . وهى اليوم أدق فكراً وأحد نظراً وأوسع فناً وعلماً مما كانت فى أى زمن من تاريخها المجيد .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو وريتان وساسه وسيمون ، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر كانوا أعظم رجال العالم فناً وأكثرهم علماً وأبعدهم خيالا — الأمر الذى يدلنا على أن لبعض الذوات العامة أعماراً أطول من الأخرى ، فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . أما الذات اليونانية فلم تعش أكثر من ألف سنة . وقد تكون الأسباب فى

طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها .

وماذا يا ترى يحل بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود ؟ .

هل تموت وتفنى بذورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجئ بعدها ؟ هل تضمحل أمام الأيام والليالى كأنها لم تكن مظهراً لليالى والأيام ؟

فى عقيدتى أن الكيان المعنوى يتغير ولكنه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادى يتحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة . أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن . فذات الأمة العامة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقى بذورها فى تربة الأرض ، أما عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود . وعندى أن العطر فى الأمة أو فى الزهرة هو الحقيقة المجردة — هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل ونينوى وأثينا وبغداد موجود الآن فى الغلاف الأثيرى المحيط بالأرض ، بل هو موجود فى أعماق أرواحنا . ونحن — أفراداً وجماعات — ورثة كل الذوات العامة التى وجدت على سطح الأرض .

غير أن ذاك الإرث العلوى لا يتخذ له صوراً محسوسة فى الفرد أو الجماعات حتى تتبلور الأمة التى ينتسب الأفراد والجماعات إليها ، وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وإرادة منفردة .



همسة فى سر الوجود ..

فلسفة المنطق أو معرفة الذات

فى ليلة من ليالى بيروت الممطرة جلس سليم أفندى دعيبس أمام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والأوراق المنثورة يقلب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والأخرى مخرجًا من بين شفتيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون فى « معرفة الذات » .

كان سليم أفندى يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضرًا إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون فى موضوعها حتى لم يُبق شاردة لمفكر غربى إلا ولازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقى إلا ولاحمت ذاكرته ، حتى إذا ما غرقت ذاته فى موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومد ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلا : « نعم . نعم إن معرفة الذات هى أم كل معرفة . أما أنا فعلىّ أن أعرف ذاتى وأعرفها تماما ، وأعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . علىّ أن أزيل النقاب عن أسرار نفسى وأمحو الالتباس عن مكامن قلبى . بل علىّ أن أبين معانى كيانى المعنوى لكيانى الهيولى وخفايا وجودى الهيولى لوجودى المعنوى .

قال هذا بحماسة غريبة وفى عينيه تتقد شعلة « محبة المعرفة » ، معرفة الذات — ثم دخل إلى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل

أرض الغرفة بسقفها ونظر محدقا بشبحه متفرسًا وجهه متأملا بشكل رأسه وخطوط قامته وإجمال هيأته .

ظل واقفًا جامدًا على هذه الحالة نصف ساعة ، كأن الفكرة الأزلية قد أنزلت عليه أفكارًا هائلة بسموها تجعله بواسطتها أن يكتشف بواطن روحه ويملأ بالنور خلايا ذاته . ثم فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطباً نفسه ·

أنا قصير القامة وهكذا كان نابليون وڤكتور هوغو .

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسبينوزا .

أنا أصلع وهكذا كان شكسبير .

أنفي كبير ومنحن إلى جهة واحدة ، وهكذا كان سفنزوولا وڤولتير وجورج واشنطون .

فى عينى سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيتشة .

فمى غليظ وشفتى السفلى ناتئة ، وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر .

عنقى غليظ ، وهكذا كان هنيبال ومرقس أنطونيوس .

أذناى مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية، وهكذا كان برونر وسرفانتى .

وجنتاى بارزتـان ، وخـداى ضامرتـان ، وهكـذا كان لاڤيـات ولنكلن .

ذقنى متقاهر إلى الوراء ، وهكذا كان غولد سمث وزوليم بت .

كتفاى متباينان فالواحد يعلو على الآخر ، وهكذا كان غمبتا وأديب إسحق .

يداى ثخينتا الكفين قصيرتا الأصابع ، وهكذا كان بليك ودانتون . وبالإجمال جسدى ضعيف نحيل ، وهذا شأن أكثر المفكرين الذين تتعب أجسادهم فى مرامى نفوسهم . ومن الغريب أنى لا أستطيع الجلوس كاتبًا أو مطالعًا إلا وبجانبى إبريق القهوة ، مثلما كان يفعل بلزاك . وفوق ذلك فلى ميل إلى معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوى ومكسيم غوركى . وقد يمر اليوم واليومان بدون أن أغسل وجهى ويدى ، وهكذا كان بيتهوفن وولت وتمن . وللعجب إنى أستريح لسماع أخبار النساء وما يفعلنه فى غياب أزواجهن كبوكاشيو وريبالى ، أما عطشى إلى الخمرة فيضارع عطش نوح وأبى نواس ودى موسه ومارلو . وأما مجاعتى للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعة ، فتقارن نهم بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابى » .

ووقف سليم أفندى دقيقة عن مخاطبة نفسه ، ثم لمس جبهته بأطراف بنانه وزاد قائلا : هذا أنا . هذه هى حقيقتى . فأنا مجموع صفات كان حائزًا عليها أعاظم الرجال من بدء التاريخ إلى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه المزايا لابد أن يفعل شيئا عظيما فى هذا العالم » .

« رأس الحكمة معرفة الذات . وأنا قد عرفت نفسى فى هذه الليلة ، ومنذ الليلة سأبتدىء بالعمل العظيم الذى انتدبتنى إليه فكرة هذا العالم بوضعها فى أعماق عناصر متعددة متباينة . رافقت عظماء البشر من نوح إلى سقراط إلى بوكاشيو إلى أحمد فارس الشدياق . أنا لا أدرى ما هو العمل العظيم الذى سأقوم به ولكن رجلا جمع فى شخصه الهيولى وذاته المعنوية ما أنا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالى .. لقد

عرفت نفسى نعم . والآلهة قد عرفت نفسى فلتحى نفسى ولتعيش ذاتى وليبقى الكون كونًا حتى تتم أعمالى » .

ومشى سليم أفندى فى تلك الغرفة ذهابًا وإيابًا وسيماء البشر على سحنته القبيحة ، وهو يردد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة العظام بيت أبى العلاء القائل :

إنى وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

وبعد ساعة كان صاحبنا مضجعًا بملابسه المشوشة على سريره المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحى بنغمة أدنى إلى جعجعة الطاحون منها إلى صوت ابن آدم .

* * *

العاصفة

١

كان يوسف الفخرى فى الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً فى تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادى قاديشا فى شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة فى أمره ، فمنهم من قال « هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلا إلى السلوان » . ومنهم من قال — « هو شاعر خيالى قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدون أفكاره وينظم عواطفه » ، ومنهم من قال — « هو متصوف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا . » ومنهم من اكتفى بقوله — « هو مجنون » .

أما أنا فلم أكن من رأى هذا ولا ذاك لعلمى أن فى داخل الأرواح أسراراً غامضة لاتكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين ، غير أنى كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهى محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب إليه لأستطلع حقيقته وأستفسر مقاصده وأمانيه ، فلم أظفر منه سوى بنظرات حادة وبعض ألفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع .

ففى المرة الأولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الأرز ، حييته بأحسن ماحضرنى من الكلام فلم يرد التحية إلا بهز رأسه ثم تحول عنى مسرعاً . وفى المرة الثانية وجدته واقفاً فى وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلا : « قد سمعت بالأمس أن هذه الصومعة بناها ناسك سريانى فى القرن الرابع عشر ، فهل لك علم بذلك يا سيدى ؟ » .

فأجاب بلهجة خشنة « لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن أعلم » . ثم أدار لى ظهره وزاد ساخراً : « لماذا لا تسأل جدتك فهى أقدم عهداً وأكثر علماً بتاريخ هذه الأودية ؟ » . فتركته مكسوفاً نادماً على تطفلى .

وهكذا مر عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار تراود خيالى وتتمايل مع أفكارى وأحلامى .

٢

ففى يوم من أيام الخريف وقد كنت متجولا بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لمزرعة يوسف الفخرى ، فاجأتنى العاصفة بأهوائها وأمطارها وأخذت تتلاعب بى مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسرت الأمواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلا فى نفسى — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك ، وستكون العاصفة عذرى وأثوابى المبللة شفيعى .

بلغت الصومعة وأنا فى حالة يرثى لها ، ولم أطرق الباب حتى ظهر

أمامى الرجل الذى طالما تشوقت إلى لقائه حاملا بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد أن حييته « اعذرنى يا سيدى على مجيئى إليك فى هذه الحالة ، ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنازل » .

فتفرس فى عابساً وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف : « الكهوف كثيرة فى هذه النواحى وقد كان بإمكانك الالتجاء إليها »

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أر مثله فى حياتى ، فعجبت لمرأى الضدين ـــ الرأفة والخشونة فى وقت واحد وتحيرت فى أمرى . وكأنه قد علم بما يخالج ضميرى فنظر إلى نظرة استيضاح واستعلام ثم قال : « إن العاصفة لاتأكل اللحوم الحامضة ، فلمَ تخافها وتهرب منها ؟ » .

فأجبته : « العاصفة لاتحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل إلى الرطب البارد ، ولا أشك بأنها ستجدنى لقمة لذيذة إذا قبضت علىّ ثانية » .

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلا : « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف رفيع لا تستحقه » .

فأجبته : « نعم يا سيدى ، ولقد جئت إليك هارباً من العاصفة لكى لا أنال ذلك الشرف الذى لا أستحقه » .

فحول وجهه محاولا إخفاء ابتسامة ضئيلة . ثم أشار نحو مقعد خشبى بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال : « اجلس وجفف أثوابك » .

فجلست بقرب النار شاكراً ، وجلس هو قبالتى على مقعد محفور فى

الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتى فى طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه وقال : « هذا الشحرور حملته الريح فهبط على الصخور بين حى وميت » .

فقلت : « والريح قد حملتنى أيضاً إلى بابك يا سيدى ، وأنا للآن لا أدرى ما إذا كانت قد كسرت جانحى أو هشمت رأسى » .

فنظر إلى وجهى بشىء من الاهتمام وقال : « حبذا لو كان للإنسان بعض أطباع الطيور . حبذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الإنسان مطبوع على الخوف والجبانة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبئ فى شقوق الأرض ومغاورها » .

فقلت وقصدى متابعة الحديث : « نعم إن للطير شرفاً ليس للإنسان ، فالإنسان يعيش فى ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه . أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلى المطلق الذى يسير بالأرض حول الشمس » .

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنه وجد بى تلميذاً سريع الفهم ثم قال : « أحسنت ، أحسنت فإذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة ، وعش كالطيور فى مكان بعيد خال إلا من ناموس الأرض والسماء » .

فقلت : « إنى اعتقد بما أقول يا سيدى » .

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب : « الاعتقاد شىء والعمل به شىء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم

الجبال أما نفوسهم فتبقى هاجعة فى ظلمة الكهوف » .

قال هذا و لم يدع لى فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدد الشحرور على جبة قديمة بقرب النافذة . ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها فى الموقدة قائلا : « اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة أضر بالإنسان من كل شيء آخر . جفف أثوابك جيداً ولا تكن خجولا » .

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابى الرطبة ، أما هو فوقف فى باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب .

وبعد هنيهة سألته قائلا : « هل جئت إلى هذه الصومعة منذ زمن بعيد ؟ » .

فأجاب بدون أن يلتفت نحوى : « جئت إلى هذه الصومعة عندما كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه » .

فسكت قائلا فى سرى : « ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل إلى حقيقته . ولكن لابد من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف أصبر حتى يتحول شموخه إلى اللين والدعة » .

٣

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الأسود ، ونمت العاصفة وغزرت الأمطار حتى خيل لى أن الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويطهر الأرض من أدرانها . وكأن ثورة العناصر قد ولدت فى نفس يوسف الفخرى

تلك الطمأنينة التى تجئ فى بعض الأحايين مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره منى إلى الاستئناس بى ، فقام وأشعل شمعتين ثم وضع أمامى جرة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الأثمار المجففة ، ثم جلس قبالتى وقال بلطف : « هذا كل ما عندى من الزاد فتفضل يا أخى وشاركنى به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين إلى ولولة الريح وبكاء الأمطار ، غير أننى كنت أتبصر وجهه بين اللقمة والأخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلا معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه .

وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد إبريقاً نحاسياً وصب منه قهوة صافية زكية الرائحة فى فناجين ، ثم فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ وقال بهدوء « تفضل يا أخى » .

فأخذت لفافة رافعاً بيدى فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عينى . فنظر إلىّ وكأنه قد سمعنى مفكراً فابتسم هازاً رأسه ثم قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلا من القهوة : أنت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة فى هذه الصومعة . وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وأنا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة .

فأجبته : « نعم يا سيدى لقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما فى العالم من الملذات والمسرات ، ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والأعشاب » .

فقال : « لقد كان بإمكانى عبادة الله وأنا بين خلقه ، لأن العبادة لا

تستلزم الوحدة والانفراد . وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأننى كنت أجده فى بيت أبى وفى كل مكان آخر ، ولكننى هجرت الناس لأن أخلاقى لا تنطبق على أخلاقهم ، وأحلامى لا تتفق مع أحلامهم ، تركت البشر لأننى وجدت نفسى دولاباً يدور يمنة بين دواليب تدور يساراً ، تركت المدينة لأننى وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقها فى ظلمة الأرض وأغصانها تتعالى إلى ماوراء الغيوم ، أما أزاهرها فمطامع وشرور وجرائم ، وأما أثمارها فويل وشقاء وهموم ، ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم » .

واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذة فى تأثير كلامه على ، فرفع صوته أكثر من ذى قبل وزاد قائلا : — لا ، لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسك لأن الصلاة ، وهى أغنية القلب ، تبلغ آذان الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف ، وأما التنسك وهو قهر الجسد وإماتة رغائبه ، فمسألة لامكان لها فى دينى، لأن الله بنى الأجسام هياكل للأرواح ، وعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالألوهية التى تحل فيها . لا يا أخى لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هاربا من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكى لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً. طلبت الانفراد لكى لا ألتقى بالنساء اللواتى يسرن ممدودات الأعناق غامزات العيون على ثغورهن ألف ابتسامة وفى أعماق قلوبهن غرض واحد .

طلبت الانفراد لكى لا أجالس ذوى « النصف معرفة » الذين يبصرون فى المنام خيال العلم فيتخيلون أنهم أصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة ، ويرون فى اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لأننى مللت مجاملة الخشن الذى يظن اللطف ضربات من الضعف والتساهل نوعا من الجبانة ، والترفع شكلا من الكبرياء . طلبت الخلوة لأن نفسى تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون أن الشموس والأقمار والكواكب لا تطلع إلا من خزائنهم ولا تغيب إلا فى جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الأمم وهم يذرون فى عيونها الغبار الذهبى . يملأون آذانهم برنين الألفاظ ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم مالا يطلبونه من نفوسهم .. طلبت الوحدة والانفراد لأننى لم أحصل على شىء من يد بشرى إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبى . طلبت الوحدة والانفراد لأننى سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة . ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية .. طلبت الوحدة لأن فى الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواقى . طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغانى الخريف وعزم الشتاء . جئت إلى هذه الصومعة المنفردة لأننى أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش الله » .

وسكتَ متنفساً الصعداء كأنه ألقى حملا ثقيلا عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحرية .

وظهرت على وجهه أمارات الأنفة والإرادة والقوة .

ومرت بضع دقائق وأنا أنظر إليه مسروراً بظهور ما كان محجوبا عنى ثم خاطبته قائلا : « أنت مصيب فى كل ما قلته ولكن ألا ترى يا سيدى أن بتشخيصك أمراض الاجتماع وأوصابه قد أبنت لى أنك أحد الأطباء الماهرين ، وأنه لا يجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل أن يشفى أو يموت ؟ إن العالم بحاجة ماسة إلى أمثالك وليس من العدل أن تعتزل عن الناس وأنت قادر على نفعهم » .

فحدق بى هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة : « منذ البدء والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا أمل . ويا ليت عليل الدهر يكتفى بملازمة مضجعه القذر ومؤانسة قروحه المزمنة ، ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره ممرضاً ويخنقه . والأمر الذى يغيظنى ويحول الدم فى عروقى إلى نار محرقة هو أن ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلا لنفسه : « لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيما » .. لا يا أخى . ليس بين الناس من يستطيع أن ينفع الناس ، فالحارث وإن كان حكيما ماهراً لا يقدر على استنبات حقله فى أيام الشتاء .

فأجبته قائلا : « قد يمر شتاء العالم يا سيدى ، ويجئ بعده ربيع بهى جميل فتظهر الأزهار فى الحقول وتترنم الجداول فى الأودية .

فقطب ما بين عينيه متنهداً وبصوت تعانقه الكآبة قال : « ليت شعرى هل قسّم الله حياة الإنسان — وهى الدهر بكامله — إلى فصول

تشابه فصول السنة بمصيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيى بالروح والحق — هل يأتى زمن يتمجد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك يا ترى — هل يتم بعد أن تشبع الأرض من لحوم البشر وترتوى من دمائهم ؟ .

وانتصب إذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير إلى عالم غير هذا العالم : « تلك أحلام بعيدة وليست هذه الصومعة منزلا للأحلام . لأن ما أعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان فى هذه الأودية وهذه الجبال . أما ما أعلمه يقيناً فهو هذا — أنا كائن موجود ، وفى أعماق وجودى جوع وعطش ، ولى الحق أن أتناول خبز الحياة وخمرها من الآنية التى أصنعها بيدى . من أجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية » .

وأخذ يمشى ذهاباً وإيابا فى وسط تلك الغرفة وأنا أتأمله وأفكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التى صورت له الجامعة البشرية بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلا : « إنى أحترم أفكارك ومقاصدك يا سيدى ، وأحترم وحدتك وانفرادك غير أننى أعلم — والعلم مجلبة الأسف — أن هذه الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلا موهوباً قادراً على خدمتها وإيقاظها » .

فأجاب — هازاً رأسه : « ليست هذه الأمة إلا كالأمم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض إلا فى الظواهر والمظاهر الخارجية التى لا يعتد بها ، فتعاسة الأمم الشرقية هى تعاسة

الأرض بكاملها ، وليس ما تحسبه رقياً فى الغرب سوى شبح آخر من أشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وإن قلم أظافره ، والغش يبقى غشاً وإن لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقا إذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وإن سارت بين المعامل والمعاهد . أما العبودية ـــ العبودية للحياة ، العبودية للماضى ، العبودية للتعاليم والعوائد والأزياء ، العبودية للأموات فستبقى عبودية وإن طلت وجهها وغيرت ملابسها . العبودية تظل عبودية حتى وإن دعت نفسها حرية . لا يا أخى ليس الغربى أرقى من الشرقى ولا الشرقى أحط من الغربى ، وما الفرق بينهما إلا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً أولياً عادلا لا يفرق التعاسة والعماوة والجهالة على السواء ، فلا يميز شعباً على شعب ولا يظلم طائفة على طائفة .

فقلت وقد بلغ بى الاستغراب حد الالتباس : « إذاً فالمدنية باطلة وكل ما فيها باطل » .

فأجاب متهيجاً : « نعم باطلة هى المدنية وباطل كل شىء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألاعيب يتسلى بها العقل وهو فى حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثمار غشاشة مملوءة بالدخان لاترضى العين ولا تغذى القلب ولا ترفع النفس . أما تلك الألغاز والأحاجى التى يدعونها بالمعارف والفنون فهى قيود وسلاسل ذهبية يجرها الإنسان

مبتهجاً بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هى أقفاص ابتدأ الإنسان بتطويق أعمدتها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنه لا ينتهى من صنعها إلا ويجد نفسه أسيراً مسجوناً فى داخلها .. نعم باطلة هى أعمال الإنسان ، وباطلة هى تلك المقاصد والمرامى والمنازع والأمانى ، وباطل كل شيء على الأرض . وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد » .

فقلت : « وما ذلك يا سيدى ؟ » .

فوقف دقيقة ساكتاً ثم أغمض أجفانه واضعاً يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال : هى يقظة فى النفس . هى يقظة فى عمق أعماق النفس. « هى فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الأرض واللانهاية . هى شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة فى داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة فى الفضاء الوسيع . هى عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون أسرارها . هى يد خفية قد أزالت الغشاء عن عينى وأنا فى وسط الاجتماع بين أهلى وأصحابى ومواطنى فوقفت منذهلا مدهوشاً قائلا فى نفسى : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إلى وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم ، بل لماذا أجالسهم وأحادثهم ؟ هل أنا غريب بينهم أم هم الغرباء فى ديار بنتها الحياة لى وأسلمتنى مفاتيحها ..؟ » .

وسكت فجأة كأن الذكرى رسمت على حافظته صوراً وأشباحاً لا يريد إظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : « هذا ما حل بى منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لأعيش فى اليقظة ، متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة » .

ومشى إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً إلى أعماق الليل ، ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : « هى يقظة فى أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ، ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها » .

٤

ومرت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخرى يمشى تارة فى وسط تلك الحجرة ويقف طوراً فى بابها محدقا بالفضاء العابس . أما أنا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهراً أقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثانى من الليل اقترب منى ونظر طويلا إلى وجهى كأنه يريد أن يحفظ فى ذاكرته رسم الرجل الذى باح له بسر وحدته وانفراده ، ثم قال ببطء : « أنا ذاهب الآن للتجول فى العاصفة . هى عادة أتمتع بلذتها فى الخريف وفى الشتاء .. هناك إبريق القهوة واللفائف ، وإن طلبت نفسك الخمر تجدها فى الجرة . وإذا شئت النوم تجد اللحف والمساند فى تلك القرنة » .

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسما : « أرجوك أن

توصد باب الصومعة عندما تذهب فى الصباح لأننى سأصرف الغد فى غابة الأرز » .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلا وقال : « إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت فى هذه النواحى فلا تتأخر عن الالتجاء إلى الصومعة هذه . ولكننى أرجو أن تُعلّم نفسك حب العواصف لا الخوف منها .. مساء الخير يا أخى » .

وخرج إلى الليل مسرعاً .

ولما وقفت فى باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد أخفاه ، ولكننى بقيت بضع دقائق أسمع وقع قدميه على حصباء الوادى .

٥

جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركت الصومعة بعد أن أقفلت بابها وفى نفسى شيء من تلك اليقظة المعنوية التى تكلم عنها يوسف الفخرى .

ولكننى لم أبلغ منازل الناس وأرى حركاتهم وأسمع أصواتهم حتى وقفت قائلا فى سرى : « نعم إن اليقظة الروحية هى أخلق شيء بالإنسان ، بل هى الغرض من الوجود . ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والأشكال من دواعى اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحيته . قد تكون

المدنية الحاضرة عرضاً زائلا ولكن الناموس الأبدى قد جعل الأعراض سُلَّماً تنتهى درجاته بالجوهر المطلق » .

و لم اجتمع ثانية بيوسف الفخرى لأن الحياة أبعدتنى عن شمال لبنان فى أواخر ذلك الخريف ، فجئت منفياً إلى بلاد قصية عواصفها داجنة ، أما التنسك فيها فضرب من الجنون .

* * *

الشيطان

كان الخورى سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية ، متبسطاً بالمسائل اللاهوتية ، متعمقاً بأسرار الخطايا العرضية والمميتة ، متضلعاً بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس .

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفى أرواحهم من أمراض الإثم ، وينقذهم من حبائل الشيطان . فالشيطان كان عدو الخورى سمعان يحاربه ليلا ونهاراً بلا ملل ولا تعب .

وكان سكان القرى يكرمون الخورى سمعان ويرتاحون إلى ابتياع عظاته وصلواته بالفضة والذهب ، ويتسابقون إلى إهدائه أطيب ماتثمره أشجارهم وأفضل ماتنبته حقولهم .

ففى عشية يوم من أيام الخريف ، وقد كان الخورى سمعان سائراً فى مكان خال نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والأودية ، سمع أنيناً موجعاً آتياً من جانب الطريق فالتفت فإذا برجل عارى الجسم منطرح على الحصباء ونجيع الدم يتدفق من جراح بليغة فى رأسه وصدره ، وهو يقول مستنجداً : أنقذنى : أعنى ! أشفق على فأنا مائت ! » .

فوقف الخورى سمعان محتاراً ونظر إلى الرجل المتوجع ثم قال فى ذاته : « هذا أحد اللصوص الأشقياء ، وأظن أنه قد حاول سلب عابرى الطريق

فغلب على أمره .. هو منازع فإذا مات وأنا بقربه اتهمت بما أنا براء منه » .

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : « لا تتركنى : أنت تعرفنى وأنا اعرفك ، أنا مائت لا محالة !» .

فقال الخورى فى ذاته وقد اصفر وجهه وار تعشت شفتاه : « أظنه أحد المجانين الذين يتوهون فى البرية » . ثم عاد وقال لنفسه : « إن منظر جراحه يخيفنى فماذا عسى أفعل له ! .. إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوى الأجساد » .

ومشى الخورى بضع خطوات فصاح الجريح بصوت يذيب الجماد قائلا : « اقترب منى . اقترب فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخورى سمعان الراعى الصالح وأنا — أنا — لست بلص ولا بمجنون . اقترب منى ولا تدعنى أموت وحيداً فى هذه البرية الخالية . اقترب فأقول لك من أنا » .

فاقترب الخورى سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً ، فرأى وجهاً غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء والقباحة بالجمال ، والخباثة بالدماثة ، فتراجع إلى الوراء وصرخ قائلا : « من أنت ؟ » .

فقال المنازع بصوت خافت : « لا تخف يا أبت فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد . أعنّى على النهوض وسر بى إلى الساقية القريبة واغسل جراحى بمنديلك » .

فصرخ الخورى : « قل لى من أنت ، فأنا لا أعرفك ولا أذكر بأننى رأيتك فى حياتى » .

فأجاب الجريح وحشرجة الموت تعانق صوته : « أنت تعلم من أنا ، فقد لقيتنى ألف مرة وشاهدت وجهى فى كل مكان . أنا أقرب المخلوقات إليك ، بل أنا أعز عليك من حياتك » .

فصاح الخورى قائلا : « أنت كاذب محتال ، وخليق بالمنازعين الصدق ، فأنا لم أر وجهك فى حياتى — قل من أنت وإلا تركتك تموت مضرجاً بدمائك ! » .

فتحرك الجريح قليلا وشخص بعينى الخورى وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة معنوية ، وبصوت هادئ ناعم عميق قال : « أنا الشيطان » .

فصرخ الكاهن صوتاً هائلا ارتعشت له زوايا ذلك الوادى ، ثم نظر إليه محدقاً فرأى أن جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيأة الأبالسة فى صورة الدينونة المعلقة على جدار كنيسة القرية ، ثم صرخ مرتجفاً : « لقد أرانى الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهى ، فلتكن ملعوناً إلى أبد الآبدين ! » .

قال الشيطان : « لا تكن متسرعاً يا أبتاه ، ولا تضيع الوقت بالكلام الفارغ بل اقترب وضمّد جراحى قبل أن يسيل ما فى جسدى من الحياة » .

فقال الخورى : « إن أصابعى التى ترفع الذبيحة الربانية فى كل يوم لن تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعونا بألسنة الدهور وشفاه الإنسانية لأنك عدو الدهر والعامل على إبادة الإنسانية » .

فقال الشيطان متململا : « أنت لا تدرى ما تقول ولا تعلم أى ذنب

تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتى .. كنت اليوم سائراً وحدى فى هذه الأودية المنفردة ، ولما بلغت هذا المكان التقيت بجماعة من أجلاف الملائكة فهجموا على وضربونى ضربا مبرحا ، ولو لم يكن مع أحدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً . ولكن ماذا يفعل العَزِل مع المسلح ؟ » .

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعاً يده على جرح بليغ فى جانبه ، ثم زاد قائلا : « أما الملاك المسلح وأظنه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف . ولو لم أنطرح على الأرض وأمثل دور النزع والموت لما أبقى منى عضواً بجوار عضو آخر » .

فقال الخورى بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : « ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الخبيث ! » .

فقال الشيطان : ليست عداوتى للإنسانية أشد سواداً من عداوتك لنفسك ، فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشىء ، وتجدف على اسمى فى ساعة انكسارى مع أننى كنت و لم أزل سبباً لراحتك وسعادتك . أتجحد نعمتى وتنكر معروفى وأنت عائش فى ظلال كيانى ؟ أو لم تتخذ وجودى صناعة لك واسمى دستوراً لأعمالك . هل أغناك ماضى عن حاضرى ومستقبلى ؟ هل نمت ثروتك إلى حد لا تحتمل معه الزيادة ؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدى بل يموتون جوعا بموتى ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالى ، وأية صناعة تحسنها إذا أبادت الأرياح اسمى ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولا بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حبائلى وتبعدهم عن

مصائبى وهم يبتاعون مواعظك بأموالهم وغلة حقولهم ، فأى شيء يبتاعون منك غداً إذا علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وأنهم أصبحوا فى مأمن من حبائله ومعاقله ، وأية وظيفة يسندها القوم لك إذا ألغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتى المدقق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداءه الكهان ، وأن تلك العداوة القديمة هى اليد الخفية التى تنقل الفضة والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ ألا تعلم وأنت العالم الخبير أنه بزوال السبب يزول المسبب ؟ إذاً كيف ترضى بموتى وبموتى تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت فى وجهه دلائل الاستعطاف بأمارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : « ألا فاسمع أيها الغبى المكابر فأريك الحقيقة التى تضم كيانى بكيانك ، وتربط وجودى بوجدانك . فى أول ساعة من الزمن وقف الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ للمرة الأولى قائلا : « ما وراء الأفلاك إلٰه عظيم يحب الخير ! » ثم أدار ظهره للنور فرأى ظله منبسطاً على أديم التراب فهتف قائلا : « وفى أعماق الأرض شيطان رجيم يحب الشر ! » ثم سار نحو كهفه هامساً فى نفسه : « أنا بين إلٰهين هائلين ، إلٰه أنتمى إليه ، وإلٰه أحاربه » . ومرت العصور إثر العصور والإنسان بين قوتين مطلقتين ، قوة تصعد بروحه إلى العلاء فيباركها ، وقوة تهبط بجسده إلى الظلمة فيلعنها . غير أنه لم يكن يدرى معانى البركة ولا مبانى اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها . ولما بلغ الإنسان فجر المدنية وهى الألفة البشرية

ظهرت العائلة ثم القبيلة ، فتفرقت الأعمال بتفرق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض ، وآخرون ببناء المآوى ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن . فى ذلك العصر البعيد ظهرت الكهانة فى الأرض وهى الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعى إليها .

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم قهقه ضاحكا بصوت ار تعشت له تلك الأودية الخالية .. وكأن الضحك قد أوسع فوهات كلومه فأسند خاصرته بيده متوجعاً ، ثم شخص بالخورى سمعان وزاد قائلا : « فى ذلك العهد ظهرت الكهانة فى الأرض . وإليك يا أخى كيفية ظهورها ، كان فى القبيلة الأولى رجل يدعى « لاويص » ولا أدرى لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب — وكان لاويص هذا رجلا ذكياً ، ولكنه كان بطالا متوانياً يكره حراثة الأرض وبناء المآوى بكرهه رعاية المواشى وصيد الوحوش ، بل كان يكره كل عمل يستلزم السواعد أو الحركة الجسدية . ولما كان الرزق فى ذلك العهد لا يأتى إلا بالعمل كان لاويص يبيت أكثر لياليه خاوى الجوف فارغه . ففى ليلة من ليالى الصيف وأفراد تلك القبيلة ملتئمون حول كوخ زعيمهم يتحدثون بمآ تى يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب أحدهم فجأة وأشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلا : « انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه واضمحل بهاؤه وتحول إلى حجر أسود معلقاً بقبة السماء . فشخص القوم بالقمر ثم ضجوا صارخين ، متهيبين ، مرتعشين ، خائفين ، كأن أيدى الظلام قد قبضت على قلوبهم

لأنهم رأوا إله لياليهم يتحول ببطء إلى كرة قاتمة وقد تغير لذلك وجه الأرض وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب أسود . فتقدم إذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرات عديدة فى سابق حياته ، فوقف فى وسط الجماعة رافعاً ذراعيه وبصوت أودعه كل مافى ذكائه من التصنع والاحتيال صاح قائلا : « اسجدوا وصلوا مبتهلين وعفروا وجوهكم بالتراب ، فإله الشر المظلم يصارع إله الليل المنير ، فإذا غلبه متنا وإذا غلب بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وعفروا وجوهكم بالتراب بل أغمضوا أجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء ، لأن من يشاهد صراع إله النور وإله الشر يفقد بصره ورشده ، ويظل مجنوناً وأعمى إلى نهاية أيامه . خروا راكعين وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوه » .

وظل لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله ألفاظا جديدة غريبة ، مردداً كلمات ماسمعوها قبل تلك الليلة . حتى إذا مامر نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذى قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : « قفوا الآن وانظروا ، فقد تغلب إله الليل على عدوه الشرير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا أنكم بركوعكم وابتهالكم قد نصر تموه وسرر تموه ، ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً » .

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم إلى طمأنينة واضطرابهم إلى مسرة وأخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهللين ، ويضربون بنبابيتهم صفائح الحديد والنحاس

مفعمين خلايا ذلك الوادى بعويلهم وضجيج لهجتهم .

فى تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : « لقد أتيت فى هذه الليلة بما لم يأته بشرى قبلك ، وعلمت من أسرار الحياة مالا يعلمه بيننا سواك . فافرح وابتهج لأنك ستكون من الآن وصاعداً صاحب المقام الأول من بعدى فى هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً وأقواهم ساعداً ، وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط بينى وبين الآلهة تبلغنى مشيئتهم وتبين لى أعمالهم وأسرارهم وتعلمنى ما يجب أن أفعله لأكون حاصلا على رضائهم ومحبتهم » .

فأجاب لاويص : « كل ما يقوله لى الآلهة فى الحلم أقوله فى اليقظة ، وما أراه من مآتيهم أظهره لك ، فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة » .

فسر الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشاً وسبعين شاة وقال له : « سوف يبنى لك رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتى ، وسيهدونك فى نهاية كل موسم قسماً من غلة الأرض وأثمارها فتعيش سيداً مطاعاً مكرما » .

وانتصب إذ ذاك لاويص للانصراف ، فأوقفه الزعيم وسأله قائلا : « ولكن من هو هذا الإلٰه الذى تدعوه بإلٰه الشر ؟ من هو هذا الإلٰه الذى يجسر أن يصارع إلٰه الليل البهى . إننا لم نسمع به قط ولا علمنا بوجوده ؟ » .

ففرك لاويص جبهته وأجاب قائلا : « اعلم يا سيدى أنه فى قديم الزمان وذلك قبل ظهور الإنسان كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودة فى مكان قصى وراء المجرة . وكان إلٰه الآلهة ، وهو والدهم يعلم مالا

يعلمونه ويفعل مالا يستطيع أحدهم أن يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض الأسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزلية . ففى العصر السابع من الدهر الثانى عشر تمردت روح « بعطار » وهو يكره الإله الأعظم فوقف أمام أبيه وقال : « لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا أسرار الأكوان والنواميس والدهور . أوَ لسنا أبناءك وبناتك ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟ » .

فغضب إله الآلهة وأجاب : « سوف أحفظ لنفسى القوة الأولية والسلطة المطلقة والأسرار الأساسية إلى أبد الدهر ، فأنا البدء وأنا النهاية .

فقال بعطار : « إن لم تقاسمنى قوتك وجبروتك تمردت أنا وأبنائى وأحفادى على قوتك وجبروتك » .

فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرة سيفاً وقبض على الشمس ترساً وبصوت ارتعشت له جوانب العالم صرخ قائلا : « ألا فاهبط أيها المتمرد الشرير إلى العالم الأدنى حيث الظلمة والشقاء ، وابق هناك منفياً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتتحول الكواكب هباء منثوراً » .

فى تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة إلى العالم الأدنى حيث تقيم الأرواح الخبيثة . وقد أقسم بسر خلوده أنه سيصرف الدهور محارباً والده وإخوته واضعاً الأشراك لكل محب لولده أو مريد لإخوانه .

فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته واصفر وجهه : « إذن فاسم إله الشر بعطار ؟ » .

فأجاب لاويص : « كان اسمه بعطار إذ كان فى مقر الآلهة ، ولكنه قد اتخذ له بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى : « بعلزبول وإبليس وسنطائيل وبليال وزميال وأهريمان وماره وأبدون والشيطان — وأشهرها الشيطان » .

فردد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمرور الهواء ثم قال : « ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكرهه الآلهة ؟ » .

فأجاب لاويص : « إن الشيطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم لأنهم من نسل إخوانه وأخواته » .

فقال الزعيم محتاراً : « إذاً فالشيطان هو عم البشر وخالهم » .

فأجاب لاويص وقال بلهجة لاتخلو من التشويش والالتباس : « نعم يا سيدى ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ أيامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التى تحول العاصفة نحو أكواخهم ، وتحرق بالقيظ مزارعهم ، وتقرض بالأوبئة مواشيهم ، وتلامس بالأمراض أجسادهم . هو إله قوى شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتئب لأفراحنا ، فعلينا أن نتفحص أطباعه لنتقى شره ، وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه إلى نبوته وهمس قائلا : « قد عرفت الآن ما كان خافياً عنى من أسرار تلك القوة الغريبة التى تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشينا . وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن قيطوبونك يالاويص لأنك أبنت لهم خفايا عدوهم القوى وعلمتهم كيف

يتقون حبائله » .

وانصرف لاويص من أمام زعيم القبيلة وذهب إلى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشواناً بخمرة خياله . أما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقلبون على مراقد محاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة .

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخورى سمعان يحدق فيه وفى عينيه جمود الحيرة والاستغراب ، وعلى شفتيه ابتسامة الموت .

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلا :« كذا ظهرت الكهانة فى الأرض ، وهكذا كان وجودى سبباً لظهورها ، وقد كان لاويص أول من اتخذ عداوتى صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقا مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففى بابل كان الناس يسجدون سبع مرات أمام الكاهن الذى يحاربنى بتعازيمه ، وفى نينوى كانوا ينظرون إلى الرجل الذى يدعى معرفة أسرارى وخفاياى كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر ، وفى ثيب كانوا يلقبون من يصارعنى بابن الشمس والقمر ، وفى بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضحون أبناءهم وبناتهم إرضاء لخصمى ، وفى أورشليم وروما كانوا يضعون أرواحهم فى قبضة من يتفنن فى كرهى وإبعادى فى كل مدينة ظهرت أمام وجه الشمس . كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفلسفة ، فالهياكل لم تقم إلا فى ظلالى ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهرى ، والقصور والبروج لم ترتفع إلا برفعة منزلتى . فأنا العزم الذى يولد العزم فى البشر ، وأنا الفكرة التى

تستنبت الحيلة فى الأفكار ، وأنا اليد التى حركت أيادى الناس . أنا الشيطان الأزلى الأبدى : أنا الشيطان الذى يحاربه الناس ليظلوا عائشين . فإذا كفوا عن منازلتى يوقف الخمول أفكارهم ويميت الكسل أرواحهم وتفنى الراحة أجسادهم . أنا الشيطان الأزلى الأبدى ، أنا عاصفة هوجاء خرساء أهب فى أدمغة الرجال وصدور النساء وأجرف أميالهم إلى الأديرة والصوامع يمجدونى بخوفهم منى ، أو إلى منازل البغى والخلاعة ليفرحونى باستسلامهم إلى مشيئتى . فالراهب الذى يصلى فى سكينة الليل لكى أبتعد عن مضجعه هو كالمسمومة التى تناديني لكى أقترب من مضجعها . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا بانى الأديرة والصوامع على أسس الخوف ، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذة . فإن زال كيانى زال الخوف واللذة من العالم . وبزوالهما تضمحل الميول والأمانى فى القلب البشرى فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطعة الأوتار مكسرة الجوانب . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا موحى الكذب والنميمة والاغتياب والغش والسخرية ، فإذا انقرضت هذه العناصر فى العالم أصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى أشواك الفضيلة . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فإذا مازالت الخطيئة زال محاربها وزلت أنت أيضاً وزال أبناؤك وأحفادك وزملاؤك ورصفاؤك . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فهل تريد أن تموت الخطيئة بموتى ؟ هل تريد أن تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبى ؟ هل تريد أن تمحو السبب لتُمحى المسببات ؟ أنا هو السبب الوضعى فهل تريد أن أموت فى هذه البرية الخالية . أجبنى أيها

اللاهوتى . هل تريد أن تنتهى العلاقة الأولية الكائنة بينك وبينى ؟ » .

وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتنهد طويلا ، فظهر بلونه الرمادى المائل إلى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التى أبقاها الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثم حدق بوجه الخورى سمعان بعينين مشعشعتين كالمسارج وقال : « لقد أنهكنى الكلام وكان الأحرى بى وأنا جريح منازع أن لا أطيل معك الحديث . ومن العجيب أنى قد استرسلت بإظهار حقيقة أنت أدرى بها منى ، وبيان أمور هى أدنى إلى صالحك منها إلى صالحى ، أما الآن فلك أن تفعل ما تشاء . لك أن تحملنى على ظهرك وتذهب بى إلى منزلك لتداوى جراحى ، أو أن تتركنى فى هذا المكان لأنازع وأموت » .

وكان الشيطان يتكلم والخورى سمعان يرتعش ويفرك يداً بيد ، وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال أنا أعرفُ الآن ما لم أكن أعرفه منذ ساعة ، فسامح غباوتى . أنا أعلم بأنك موجود فى العالم لكى تجرب والتجربة هى مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هى ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها . أنا أعلم الآن إذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التى تجعل الإنسان أن يكون متحذراً ، بل يزول السبب الذى يقود الناس إلى الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لأنك إن قضيت وعرف الناس يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالإثم ، من أجل ذلك يجب أن تحيا ، لأن بحياتك خلاص الجنس البشرى من الرذيلة . أما أنا فسوف أضحى كرهى لك على مذبح محبتى للجنس البشرى .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال : ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، ومَا أعمق معارفك بالأمور اللاهوتية ، فها قد أوجدت بقوة إدراكك سبباً لو جودى لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل منا الأسباب الوضعية واللاهوتية التي أوجدتنا فى البدء وتوجد الآن ، يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخى ! تعال واحملنى إلى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقتُ نصف دمى على حصباء هذا الوادى » . فاقترب الخورى سمعان من الشيطان وقد شمر عن ساعدية وشكل أطراف عباءته بحزامه ، ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق .

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخورى سمعان نحو قريته منحنى الظهر تحت هيكل عار وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه .

* * *

الصلبان

المكان : منزل يوسف مسرة فى بيروت .

الزمان : ليلة من ليالى الخريف سنة ١٩٠١ .

الأشخاص :

بولس الصلبان : موسيقى وأديب .

يوسف مسرة : كاتب وأديب .

الآنسة هيلانة مسرة : شقيقة يوسف .

سليم معوض : شاعر وعواد .

خليل بك تامر : موظف فى الحكومة .

يرفع الستار عن قاعة حسنة فى منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والأوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة .

خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) : قد قرأت اليوم مقالتك فى الفنون الجميلة وتأثيرها على الأخلاق ، وقد أعجبتنى كثيراً . ولولا صبغتها الإفرنجيه لكانت خير ما كتب فى الموضوع . أنا يا مسرة أفندى من الذين يرون أن تأثير الآداب الغربية على لغتنا من الأمور المضرة .

يوسف مسرة (مبتسماً) : قد يكون الحق معك يا صديقى ، ولكن

بارتدائك الملابس الإفرنجية ، وبتناولك الطعام بآنية إفرنجية ، وبجلوسك على مقاعد إفرنجية ، عارضت ذاتك بذاتك . وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلا إلى مطالعة الكتب الإفرنجية منك إلى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك : ليس لهذه الأمور السطحية من علاقة بالآداب والفنون .

يوسف مسرة : نعم هناك علاقة حيوية وضعية . وإذا تعمقت قليلا فى الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية ، بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك : أنا شرقى وسأبقى شرقياً إلى آخر حياتى وقهراً عن بعض مظاهرى الأوربية ، فأنا أرجو أن تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الأجنبية .

يوسف مسرة : إذاً أنت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك : وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة : إن الأمم المسنة التى لا تكتسب مما تثمره الأمم الحديثة تموت أدبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك : إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان .

يوسف مسرة : لدى ألف برهان وبرهان .

(فى هذه الدقيقة يدخل بولس الصلبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً) .

يوسف مسرة : أهلا وسهلا بالإخوان (مخاطباً الصلبان) أهلا وسهلا ببلبل سوريا .

(الآنسة هيلانة تنظر إلى الصلبان وقد توردت وجنتاها قليلا

وظهرت على محياها أمارات السرور) .

سليم معوض : بالله عليك يا يوسف أن لا تقول كلمة حسنة لبولس .

يوسف مسرة : ولماذا ؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) : لأنه لا يستحق التكريم ولا المديح ولا الإطراء . لأنه ذو أطوار وأخلاق غريبة . لأنه مجنون .

بولس الصلبان (مخاطباً معوض) : هل أحضرتك برفقتى إلى هذا المنزل لتبين عيوبى وتشرح أخلاقى ؟

الآنسة هيلانة : ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم أفندى عيوباً جديدة فى أخلاق بولس ؟

سليم معوض : إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن وتتحول عظامه إلى تراب .

يوسف مسرة : أخبرنا . ماذا جرى ؟ أخبرونا بالحكاية من أولها إلى آخرها .

سليم معوض (مخاطباً الصلبان) : هل تسمح لى أن أتكلم عن جرائمك يا بولس ، أم تريد أن تعترف أنت بها ؟ .

بولس الصلبان : أريد أن تبقى صامتاً كالمقبرة هاجعاً كقلب العجوز .

سليم معوض : إذاً فسوف أتكلم .

الصلبان : يظهر لى أنك تريد أن تنغص عيشى فى هذه السهرة .

سليم معوض : لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الأصحاب لينظروا فى أمرك .

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) : تكلم وأسمعنا ما جرى !. (للصلبان) قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها إحدى فضائلك .

الصلبان : لم أقترف جريمة كما أنني لم أفعل فضيلة . أما المسألة التي يشوق صاحبنا إلى إظهارها فهي لا تستحق الذكر ، وفوق كل ذلك فأنا لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثي .

الآنسة هيلانة : حسناً إذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) : قد سمعتم طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا ،وقد عرفتم أن والد العريس قد أقام ليلة أمس حفلة طرب دعا إليها وجهاء المدينة وكبارها . (مشيراً إلى بولس) وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضاً ، والسبب في ذلك أن الناس يحسبونني ظلا لبولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولأنه أدامه الله وأبقاه ، لا يحب الإنشاد إلا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا متأخرين ، وبولسنا كالملوك لا يجيء إلا متأخراً فوجدنا هناك الوالي والمطران ، بل وجدنا هناك الحسناء الفاضلة والأديب والشاعر والمثري والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون إلى بولس كأنه ملاك هبط من السماء ،أما السيدات فأخذن يقدمن إليه كؤوس الخمر وصحف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء أثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام أن بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء . أخذت عودي وضربت أولا وثانياً وثالثاً ففتح بولس شفتيه المقدستين وأنشد بيتاً .. بيتاً

واحداً من قصيدة ابن الفارض :

غيرى على السلــوان قــادر وسواى فى الـعشاق غـــادر

فأصغى القوم وتطاولت أعناقهم كأن الموصلى قد جاء من وراء حجب الأبدية ليهمس فى آذانهم أنغاماً سحرية علوية . وبعد ذلك سكت بولس فظن الحاضرون أنه سيعود إلى الإنشاد بعد أن يشرب كأساً أخرى من العرق ، ولكن بولس ظل ساكتاً .

بولس الصلبان (بلهجة جدية) : أرجوك أن تقف عند هذا الحد فأنا لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد ، وأنا لا أشك بأن أصحابنا لا يجدون لذة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى .

يوسف مسرة : بحقك دعنا أن نسمع البقية .

بولس الصلبان (ينهض من مكانه قائماً) : الظاهر أنكم تفضلون هذا الحديث البارد على وجودى بينكم ــ أودعكم ! .

الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنوية) : اجلس يا بولس ومهما كان الخبر فنحن معك .

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد) .

سليم معوض (متابعاً حديثه) : قلت إن بولس المعطر المعظم قد أنشد بيتاً ــ بيتاً واحداً من قصيدة الفارض وسكت . أعنى أنه أذاق أولئك الجياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر آنيتها وكؤوسها ، ثم جلس ساكتاً جلوس أبى الهول على رمال النيل .

وقامت السيدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرق الكــلام لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله : (أنا مرشح .. أشعر بألم فى

حنجرتی) . ثم قام الوجهاء والأغنياء يرجونه ويتذللون أمامه فلم يحن ولم يلن بل بقي جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوان ، وحول الأنغام فى نفسه إلى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حد الألم ناداه جلال باشا إلى غرفة محاذية ووضع فى جيبه قبضة من الدنانير قائلا : « أنت تستطيع يا بولس أفندى أن تختم حفلتنا بالسرور أو بالأكدار ، لذلك أرجوك أن تقبل منى هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعورى نحوك فلا تخيب آمالى وآمال الحاضرين بك » .

عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير إلى مقعد بجانبه قائلا بلهجة الملوك الفاتحين : « أنت تهيننى يا جلال باشا بل أنت تحتقرنى ، فأنا لم أجىء إلى منزلك لكى أنشد وأغنى وأبيع أنفاسى بالمال ، بل جئت كأحد المهنئين » .

بعد هذا فقد جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحساس أن يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . أما أنا — أنا المسكين فقد تناولت عودى وتبعت بولس تاركا ورائى الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحيت كل ذلك لكى لا أفقد صداقة هذا المتصلب المتعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البعليم وهو للآن لم يشكرنى ولم يمدح بسالتى ولم يعترف بمودتى وولائى .

يوسف مسرة (ضاحكا) : هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حرية أن تكتب بالإبر على آماق البصر .

سليم معوض : لم أصل للآن إلى نهاية الحكاية.. أما اللذة ففى النهاية تلك النهاية الشيطانية التى لا يحلم بمثلها أهريمان الفرس ولا سيفا الهنود .

الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) : بقيت هنا إكراماً لك ، والآن أرجوك أن تطلبى من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد .

هيلانة : دعه يتكلم يا بولس أو مهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) : قلت إننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الأغنياء والوجهاء ، وأنا أجدف على اسمه فى سرى . وبعد ذلك هل تظنون أنه ذهب كل منا إلى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا !! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنغام والأحلام ، وممن يعبدون هذا البعليم (مشيراً إلى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة فى منتصف الشارع فاركا جبهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ، ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتثاءب . ولكنه عندما رأى وجه بولس ورآنى حاملا العود تحت إبطى تغيرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسروراً مؤهلا قائلا : « ما أتى بكم فى هذه الساعة المقدسة ؟ » فأجاب بولس قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا فى دارك » . فقال حبيب « هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم

إلى هذا المنزل الحقير ؟؟ » فأجاب بولس : « ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والأناشيد ، من أجل ذلك جئنا إليك فهات قنينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام » . الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب و لم يتناول بولس كأساً أو كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التى تطل على حديقة الباشا ، ثم ناولنى العود وقال آمراً « هذه عصاك يا موسى فحولها إلى افعى ومرها أن تبتلع جميع أفاعى مصر . اضرب النهوند واضرب طويلا واضرب جميلا . فتناولت العود وليس على العبد إلا الطاعة ، وضربت النهوند فحول بولس وجهه نحو منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال .

(هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيمياء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية) .

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا صبيين فى المدرسة ولقد سمعته منشداً فى حالتى الفرح والشقاء . سمعته ينوح كالثكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس فى سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة تملأ الفضاء سحراً وهيبة . نعم لقد سمعته ألف مرة ومرة ، وكنت أتوهم أننى أعرف حركات روحه وسكناتها . ولكننى فى ليلة أمس لما حول وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد :

كل يوم أشكو من غرام قلبى وكلما أشكو يزيد الغرام

عندما أنشد هذا الدور متلاعباً بمقاطيعه مثلما يتلاعب الهواء بأوراق الخريف ، قلت فى نفسى لا — ما عرفت فى الماضى من روح بولس إلا

القشور ، أما الآن فقد بلغت اللباب . لم أسمع فى الماضى غير لسان بولس منشداً ، أما الآن فإنى أسمع قلبه وروحه . وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد إلى نشيد ، حتى خيل لى أن فى الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضى البعيد ، ناشرة ماطوته الليالى من أمانى البشر وأحلامهم . نعم يا سادتى (مشيراً إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب أنه لم يهبط على الأرض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع أعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء فى المزامير ! أما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى تزاحموا فى النوفذ وجلسوا نساء ورجالا يتأوهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم إلى الحديقة ووقفوا تحت الأشجار مغبوطين ، متعذبين مصغين محتارين فى أمر هذا البعليم الذى ينكيهم ويهينهم ، وفى الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية . وقد كان يناديه البعض مستعطفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً ، وقد علمت من أحد المدعوين أن جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقلا من غرفة إلى غرفة لاعناً الصلبان ، غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بأيديهم . هذا ما جرى ليلة أمس فما قولكم فى هذا النابغة المجنون ؟ ما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك : هذه حادثة عجيبة ! أما رأيى فيها فهو هذا — أنا من المعجبين بمواهب بولس أفندى ، ومع كل احترامى له أقول إنه اخطأ ليلة

أمس فقد كان بإمكانه أن ينشد فى بيت جلال باشا كما أنشد فى بيت حبيب سعادة ، ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف أفندى ؟

يوسف مسرة : أنا لا ألوم الصلبان كما أننى لا أحاول فهم أسراره وخفاياه لعلمى أن المسألة شخصية تتعلق به دون سواه ، ولعلمى أن أخلاق الفنيين ، خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عن أخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة أن نقيس أعمالهم ومآتيهم على المقاييس التى نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم . إن الفنى وأعنى بالفنى ذلك المبدع الذى يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة — هو رجل غريب بين أهله وخلانه ، وغريب فى وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفنى يميل شرقاً عندما يميل الناس غرباً ، ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه أن يبسطها . فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعساء ، ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفنى فوق الشريعة رضى الناس أم غضبوا .

خليل بك : إن كلامك هذا يا يوسف أفندى لا يختلف بمعانيه ومفاده عما جاء فى مقالتك عن الفنون الجميلة . واسمح لى أن أقول ثانية إن الروح الغربية ، الروح الإفرنجية التى تكرز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة : هل تحسب أن ما فعله بولس أفندى ليلة أمس مظهراً للروح الإفرنجية التى تنكرها وتكرهها .

خليل بك : إنى أستغرب ما فعله بولس أفندى ، أقول ذلك مع

الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة : أو ليس للصلبان تمام الحرية أن يفعل بصوته وفنه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك : نعم له تمام الحرية أن يفعل ما يشاء ، ولكننى أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . إن ميولنا وعاداتنا وتقاليدنا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس أفندى ليلة أمس بدون أن يضع نفسه فى موقف حرج .

الآنسة هيلانة : هذه مناظرة لذيذة ومفيدة . ولكن بما أن السبب فى هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) : كنت أتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت أود أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس . ولكن بما أننى فى مركز حرج كما يقول حضرة البك ، فأنا لا أرى بدأ من إظهار أفكارى فى هذا الموضوع . أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضاً أن أكثر من يعرفنى ينتقدنى ، هذا يقول إننى مغنج وذلك أننى أعوج . وهنالك فئة تقول إننى لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب يا ترى فى هذه لانتقادات الجارحة ؟ إن السبب فى أخلاقى ، نعم فى أخلاقى التى لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما أردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بى وبأخلاقى ؟ أليس بإمكانهم أن يتناسوا كيانى ؟ فى هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين والموسيقيين ، وكثير من الشعراء والمقرظين ، وكثير من المبخرين والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم ، بل ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلفة أو بقنينة من الخمر . وقد عرف أغنياؤنا

ووجهاؤنا هذا السر ، لذلك تراهم يبتاعون أبناء الفن والأدب بأبخس الأثمان ويعرضونهم فى منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم فى الساحات والطرق . نعم أيها السادة إن المغنين والشعراء فى الشرق هم حملة المباخر ، بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا فى الأعراس ويترنموا فى الحفلات ويندبوا فى المآتم ويرثوا فى المقابر . هم الآلات التى تدار فى أيام الحزن وليالى الأفراح ، فإذا لم يكن من داع للحزن أو الفرح طُرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا ألوم الوجهاء والأغنياء بل ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضنون بماء وجوههم . ألومهم لأنهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لأنهم لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متهيجا) : إن القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتتكرم عليهم بأغنية أو نشيد . فهل تحسب إنشادك فى بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع والتذلل ؟ .

بولس الصلبان : لو استطعت الإنشاد فى منزل جلال باشا لفعلت . ولكننى نظرت حولى فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا يسمعون من الأصوات إلا رنات الدنانير ، والوجهاء الذين لا يفهمون من الحياة إلا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حولى فلم أجد من يميز النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الأصفهان ، لذلك لم أستطع أن أفتح صدرى أمام العميان ، أو أعرض أسرار قلبى أمام الطرشان . إنما الموسيقى لغة الأرواح ، هى سيال خفى يتموج بين روح المنشد وأرواح

السامعين ، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع ، فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى اظهار ما فى أعماقه من الحركات والسكنات. والموسيقى مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة ، فإذا تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) لقد تراخت أوتار روحى فى منزل جلال باشا عندما تفرست فى الحاضرين نساء ورجالا ولم أر بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . أما استعطافهم إياى فلم يكن ناتجاً إلا عن تمنعى وسكوتى . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتم أحد بى .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) : وبعد ذلك ذهبت إلى منزل حبيب سعادة . وللنكاية — وللنكاية فقط — جلست منشداً حتى الصباح ! .

بولس الصلبان : جلست منشداً حتى الصباح لأنى أردت أن أفرغ مكنونات قلبى . لأننى أردت أن ألقى حملا ثقيلا عن عاتقى . لأنى أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لأننى شعرت بحاجة ماسة إلى شد تلك الأوتار التى تراخت فى منزل الباشا . أما إذا كنت تظن يا خليل بك أننى أردت النكاية فلك الحق أن تفتكر بما تريد . إن الفن طائر حر يسبح محلقاً عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء ، وليس من قوة فى هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشترى ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . أما الفنيون بيننا — وهم أندر من الكبريت الأحمر . فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الإناء الذى يملأه

الله خمرة علوية .

يوسف مسرة : إنى متفق معك يا بولس . ولقد أبنت أفكارى فى هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها . أنت ابن الفن أما أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض : الصلبان يتكلم مثلما ينشد ، وليس على سامعه إلا الاقتناع والإذعان .

خليل بك : لم أقتنع بعد ولن أقتنع . ومافلسفتكم هذه إلا إحدى تلك العلل المتسربة إلينا من بلاد الإفرنج .

يوسف مسرة : لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة . (فى هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخاطب الآنسة هيلانة قائلة : يا معلمتى قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة) .

يوسف مسرة (ينتصب مخاطباً الجميع) : تفضلوا أيها الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيذة ـــ لذيذة جداً وتكاد أن تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة وخليل بك وسليم معوض ، أما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين فى وسط القاعة وكل يحدق بوجه الآخر وفى عينيهما أشعة لاتوصف) .

هيلانة (هامسة) : هل علمت أننى كنت مصغية إليك ليلة أمس ؟

الصلبان (مستغرباً) : ماذا تعنين يا هيلانة قلبى ؟

هيلانة (بخجل ووجل) : كنت أمس فى بيت شقيقتى مريم . ذهبت لأنام عندها لأن زوجها متغيب وهى تخاف لوحدها .

الصلبان : أوَبيت صهرك على طريق الحرج ؟

هيلانة : ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق .

الصلبان : وهل سمعتينى منشداً ؟

هيلانة : سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك حتى سمعت الله متكلماً .

(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلا) :

« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة » .

(يخرج بولس وهيلانة الستار)

* * *

الشاعر البعلبكى

١

فى مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد .

جلس الأمير على عرشه الذهبى ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد أمامه ، وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .

بعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها ، فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك .

فهز الأمير رأسه وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتى الغرائب والعجائب ، فأدخلوه لنسمع حجته » .

لم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة ، وبعد أن انحنى مستأذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه ، وطفق يتكلم عن بدعته مظهراً كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذى تختاره ، متدرجة بتأثيرات الأمور التى تختبرها، متمايلة مع الأمجاد التى ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذى يسعدها ويشقيها .. ثم تطرق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات ، مكفرة فى حاضرها عن ذنوب اقترفتها فى ماضيها ، مستغلة فى بلد مازرعته فى بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سيماء الملل والضجر ، اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس فى أذنه قائلا : « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .

فتراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً أجفانه ، كأن عينيه قد تعبتا من التحديق فى خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء ، تلفت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثم سأل قائلا : « أين شاعرنا فقد مر زمن و لم نره .. ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ »

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً فى رواق هيكل عشتروت ، وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار السرو

والصفصاف فحييته ولم يرد التحية ، بل ظل غارقاً فى بحر أفكاره وأحلامه » .

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم فى حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجفانه وتتلاعب الغصات بأنفاسه » .

فقال الأمير بصوت تلاحقه اللهفة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين ، لقد شغل بالنا أمره » .

خرج العقيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب فى وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمى الأمير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الأمير قائلا « ما الخبر .. ماذا جرى ؟ » .

فرفع الزنجى رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً فى حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان جلت لهم أشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان « انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته ، فتعاهدا على أن يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحدق فى أعماق الفضاء كعادته ، كأنه

يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف » .

وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غداً نقبره فى ظلال هيكل عشتروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان قصائدة ، وتنثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيما فليكن احتفالنا بدفنه عظيما » .

فهز الأمير رأسه دون أن يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد أهملناه إذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فإذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية . ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه ، وأبقوا قيثارته بين ذراعيه . وإن كان بينكم من يريد أن يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلا « أين الفيلسوف الهندى ؟ » .

فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم » .

فقال الأمير « قل — قل أيها الحكيم — هل ترجعنى الآلهة أميراً إلى هذا العالم وتعيده شاعراً . هل تلبس روحى جسد ابن ملك عظيم ، وتتجسم روحه فى جسد شاعر كبير . هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينظم الحياة شعراً ، وتعيدنى لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات والعطايا؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلا « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح ، فالناموس الذى يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيما

ويعيده شاعراً كبيراً » .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو قصره مفكراً فى أقوال الحكيم الهندى محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح » .

٢

« فى مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد » .

طلع القمر وألقى وشاحه الفضى على المدينة ، وأمير البلاد جالس فى شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافى ، مفكراً بمآتى الأجيال التى مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبى الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التى سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره ، وانبسطت مسارح أحلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « فى نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فانشدنا شيئاً منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلى ، فقاطعه الأمير قائلا « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال « أحدث عهداً — أحدث عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطيع موشح أندلسى .

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنه يريد أن يستحضر إلى حافظته كل مانظمه شعراء العصر . ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ومعان رقيقة مبتكرة . وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملؤها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .

فحدق الأمير بنديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيد خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصى . ثم سأل قائلا « لمن هذه الأبيات ؟ » .

فأجاب النديم « للشاعر البعلبكى » .

ـــ الشاعر البعلبكى !

الشاعر البعلبكى .. كلمتان غريبتان تموجتا فى مسامع الأمير وولدتا فى داخل روحة النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها .

الشاعر البعلبكى اسم قديم جديد . أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية ، وأيقظ فى أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة ، وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء .

وامحت هذه الرؤيا أمام عينى الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجىء الصباح ، فوقف ومشى جامعًا ذراعيه على صدره ، مرددًا آية النبى العربى « وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

ثم التفت نحو نديمه قائلا « يسرنا وجود الشاعر البعلبكى فى بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » . وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض « إنما

الشاعر طائر غريب المزايا ، يفلت من مسارحه العلوية يجيء هذا العالم مغردًا ، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائرًا إلى مواطنه » .

وانقضى الليل .. فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس قميصه المنسوجة من أشعة الصباح . ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه وخفايا الحياة وأسرارها .

السم فى الدسم

فى صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التى تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية ، اجتمع سكان قرية « تولا » ، حول الكنيسة القائمة فى وسط منازلهم يتساءلون ، ويتبادلون الآراء فى سفر فارس الرحال الفجائى إلى مكان قصى لا يعلم به غير الله ، تاركا عروسته الصبية التى تزوج بها منذ ستة أشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان فى شخصيته مايوعز الاحترام والوقار فى قلوب مواطنيه . وعندما اقترن فى أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس : ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الإنسان من السعادة فى الحياة الدنيا .

ولكن فى ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا ، قيل لهم إن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقاً . تعاظمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفية التى جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه .

إن الحياة فى شمال لبنان أقرب إلى الاشتراكية منها إلى كل تعليم آخر ، فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده ، مدفوعين بأميال فطرية وضعية . فإذا ما جاءت الأيام بحادث إلى قرية ينصرف سكانها بكليتهم إلى استقصاء ذلك الحادث حتى تجيء الأيام إليهم بأمر آخر .

تلك هى العوامل التى صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية ، فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء بسفر فارس الرحال .

وبينما هم على هذه الحالة وإذا بالخوزى إسطفان كاهن القرية يقترب منهم منحنى الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكتاً يفرك يداً بيد ، وبعد هنيهة قال :

ـــ لا تسألونى .. لا تسألونى . كل ما أعرفه يا أبنائى هو هذا : قرع فارس باب منزلى قبل طلوع الفجر ، ولما فتحت له وجدته متمسكا بمقود فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد فقال « جئت لأودعك يا أبتى . فأنا مسافر إلى ماوراء البحار ولن أعود إلى هذه البلاد وأنا حى . ثم وضع فى يدى رسالة مختومة باسم صديقه نجيب مالك وطلب إلى أن أسلمها إليه يداً بيد ، فعل هذا واعتلى فرسه وراح مسرعاً قبل أن أستوضح أمره ، هذا كل ما أعرفه فلا تسألونى الزيادة » فقال أحد الواقفين :

ـــ لا شك أن فى الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره ، لأن نجيب مالك كان أعز صديق له فى القرية .

وقال آخر :

— وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن :

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت إدراكها . ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لا أدرى لا أدرى » ثم طفقت تبكى وتنتحب كالأطفال .

و لم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذى يحيط بمنزل فارس الرحال شاهدوا هنالك منظراً أجمد الدم فى عروقهم والفكرة فى رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرحال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة : قد قتل نفسه . قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية فى صدره » .

فبهت القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد فى يمينه الرسالة التى كان قد سلمه إياها فى ذلك الصباح وقد قبض عليها بشدة ، كأنه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها فى جيبه دون أن يراه أحد ، ثم تراجع إلى الوراء لاطماً وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر إلى بيت والدته المسكينة التى لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فاقتادوها إلى منزلها بين حية وميتة .

* * *

ولما بلغ الخورى إسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلا الرسالة التى وجدها فى يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :

أخى نجيب :

أنا تارك هذه القرية لأن وجودى فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتى ولى أيضاً . أنا أعلم أنك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك . وأعلم أن زوجتى سوسان طاهرة الذيل ، ولكننى أعلم فى الوقت نفسه أن الحب الذى يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق إرادتكما . فأنت لا تستطيع إزالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجارى نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً يا نجيب مذكنا صبيين نلعب فى الحقول وفى ساحة الكنيسة ، وأنت لم تزل صديقى أمام الله ، وأرجوك أن تفتكر بى فى المستقبل مثلما كنت تفتكر بى فى الماضى ، وإذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها إنى أحبها وأرحمها . وقل لها أيضاً إنى كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ فى سكينة الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكى وتنتحب وتجلد صدرها . ليس أصعب من حياة المرأة التى تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت فى حرب دائم . كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار ، لأنى لا أريد أن أكون

حجر عثرة فى سبيل سعادتكما . وفى الختام أرجوك يا أخى أن تبقى مخلصاً لسوسان ، وأن تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت كل شيء من أجلك . فهى تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدم للمرأة . ابق يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس ، والله يحفظك لأخيك .

فارس الرحال

ولما انتهى الخورى إسطفان من قراءة الرسالة ، طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادى البعيد وعلى وجهه المتجعد أمارات التفكر العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سراً دقيقاً هائلا محجوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً : ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال : فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت إليه بالسم ممزوجاً بالعسل ، قد بعثت إليه السيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت إليه الموت طى الرسالة . فعندما صوب بندقيته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محيطة بإرادته .. أواه ما أكثر دهاءك يا فارس الرحال .

وعاد الخورى إسطفان فجلس على المقعد هازاً رأسه ممشطاً لحيته بأصابعه ، مبتسماً ابتسامات ذات معان أشد هولا من المأساة ، وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس أفرام السريانى ، وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع صراخ النساء آتياً من قلب القرية .

ماوراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينيها وحدقت هنيهة بسقف الغرفة ، ثم أغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثاً قالت :

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادى ، فلنذهب إلى لقائه » .

فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدها باردة كالثلج ، ثم وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فأحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد أن يلفظ كلمة علوية ترددها أشباح الليل فى تلك الأودية القاصية الخالية . ثم صلب ذراعيها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس فى قرنة مظلمة من تلك الغرفة ، وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف : « قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربها . فقم يا أخى اركع بجانبى لنصلى » .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى فى فضاء الغرفة ظل إله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً منتحباً ، راسماً بين الآونة والأخرى إشارة الصليب على وجهه وصدره .

وانتصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلا :

« قم يا أخي ! تعال إلى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة إلى النوم والراحة » .

فلم يبد الرجل معارضة ، بل وقف وسار إلى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار .

ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم أجفانه فرقد كطفل بين ذراعي أمه .

* * *

أما الكاهن فظل منتصباً كالتمثال وسط تلك الغرفة بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ، ويلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم في الغرفة المحاذية .

ومرت ساعة أطول من الدهر وأشد هولا من الموت ، والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين .. رجل راقد رقود حقل يحلم بمجيء الربيع ، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبدية .

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا أمامها كما يجثو أمام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفتيه المرتجفتين ونظر إلى وجهها المتشح بنقاب الموت ، وبصوت هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

« ياراحيل ، ياراحيل ، يا أخت روحي ، اسمعيني ياراحيل فأنا أستطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفتي لأبوح لك بسر أعمق من الموت ، وأطلق الألم لساني لأكشف لك أمراً أشد من الألم . اسمعي

صراخ روحي أيتها الروح المرفرفة بين الأرض واللانهاية . اسمعي الشاب الذى كان يراك راجعة من الحقل فيتنحى محتجباً بين الأشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعي الكاهن الذى يخدم الله فهو يناديك الآن بلا وجل لأنك بلغت مدينة الله .

همس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبل عنقها — قبلات طويلة حارة ، خرساء « علوية » تبين ما فى نفسه من أسرار الحب والألم .

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وارتمى على الأرض مرتعشاً كأوراق الخريف ، كأن ملامسة وجه المرأة المثلجة قد أيقظت فى داخله عاطفة الندم . ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلا فى سره :

« اغفر ذنبي يا رب ! سامح ضعفي يا إلهي ! فأنا لم أتجلد حتى النهاية . فالسر الذى أخفته الحياة فى قلبي سبعة أعوام قد أباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لى يا رب سامح ضعفي يا إلهي .. » .

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ، ولا ينظر إلى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردى على تلك الرسوم الهيولية التى تمثل الحب والدين والحياة والموت .

البنفسجة الطموحة

كانت فى حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الأعشاب .

ففى صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة « ما أقل حظى بين الرياحين ، وما أوضع مقامى بين الأزهار : فقد ابتدعتنى الطبيعة صغيرة ، حقيرة أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتى نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهى نحو الشمس مثلما تفعل الورود » .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : « ما أغباك بين الأزهار ، فأنت فى نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخلى عنك هذه الميول العوجاء والأمانى الشريرة وكونى قنوعة بما قسم لك ، واعلمى أن من خفض جناحه يرفع قدره ، وأن من طلب المزيد وقع فى النقصان » .

فأجابت البنفسجة قائلة : أنت تعزينى أيتها الوردة لأنك حاصلة على

ما أتمناه ، وتغمرين حقارتى بالحكم ، لأنك عظيمة . وما أمر مواعظ السعداء فى قلوب التعساء ، وما أقسى القوى إذا وقف خطيباً بين الضعفاء !) .

* * *

وسمعت الطبيعة مادار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ، ثم رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتى البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك ، عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ » .

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :

« أيتها الأم العظيمة بجبروتها الهائلة بجنانها ، أضرع إليك بكل ما فى قلبى من التوسل ، وما فى روحى من الرجاء أن تجيبى طلبى وتجعلينى وردة ، ولو يوماً واحداً » .

فقالت الطبيعة : « أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ماوراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية ، فإذا رفعت قامتك وأبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم » .

فقالت البنفسجة : « حوِّلى كيانى البنفسجى إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس . ومهما يحل بى بعد ذلك يكن صنع رغائبى ومطامعى » .

فقالت الطبيعة : « لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ، ولكن إذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من

نفسك » .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ، ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهواء . فكسرت الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشامخة ، ولم تبق إلا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالأرض أو تختبئ بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العواصف ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزاهرها هباء منثوراً ، ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

* * *

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ماحل بأزهار الحديقة وأشجارها ، فابتسمت فرحة ثم نادت رفيقاتها قائلة : « ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً وإعجابا » ! .

وقالت بنفسجة أخرى : « نحن نلتصق بالتراب ولكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء » .

وقالت بنفسجة ثالثة : « نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلب علينا » .

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التى كانت بالأمس بنفسجة ، وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الأرياح وألقتها على الأعشاب المبللة فبانت كقتيل أرداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة : « تأملن وانظرن يا بناتى . انظرن إلى البنفسجة التى غرتها المطامع فتحولت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت إلى الحضيض . ليكن هذا المشهد أمثولة لكنّ » .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

« ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والإعصار . فقد كنت بالأمس مثلكن أجلس بين أوراقى الخضراء مكتفية بما قُسم لى ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلنى عن زوابع الحياة وأهوائها ، ويجعل كيانى محدوداً بما فيه من السلامة متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بإمكانى أن أعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرنى الشتاء بثلوجه ، وأذهب كمن ذهب قبلى إلى سكينة الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وُجد البنفسج على سطح الأرض . لقد كان بإمكانى الانصراف عن المطامع والزهد فى الأمور التى تعلو بطبيعتها عن طبيعتى ، ولكننى أصغيت فى سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم « إنما القصد من الوجود الطموح إلى ماوراء الوجود » . فتمردت نفسى على نفسى وهام وجدانى بمقام يعلو عن وجدانى وما زلت أتمرد على ذاتى

وأشوق إلى ما ليس لى حتى انقلب تمردى إلى قوة فعالة ، واستحال شوقى إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفية — أن تحولنى إلى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق » .

وسكتت الوردة هنيهة ، ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق :

« أى لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود وسمعت همس الأثير بآذان الورود .. ولمست ثنايا النور بأوراق الورود . فهل بينكن من تستطيع أن تدعى شرفى ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثاً قالت :

(أنا أموت الآن . أموت وفى نفسى ما لم تكِنُّه نفس بنفسجة من قبلى . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذى ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالى) .

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلا ، ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة أمانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله .

الشاعر

أنا غريب فى هذا العالم .

أنا غريب وفى الغربة وحدة قاسية ووحشية موجعة ، غير أنها تجعلنى أن أفكر أبداً بوطن سحرى لا أعرفه ، وتملأ أحلامى بأشباح أرض قصية ماراتها عينى .

أنا غريب عن أهلى وخلانى ، فإذا مالقيت واحداً منهم أقول فى ذاتى : « من هذا ، وكيف عرفته ، وأى ناموس يجمعنى به ، ولماذا أقترب منه وأجالسه ؟ » .

أنا غريب عن نفسى ، فإذا ما سمعت لسانى متكلما تستغرب أذنى صوتى ، وقد أرى ذاتى الخفية ضاحكة باكية ، مستبسلة ، خائفة ، فيعجب كيانى بكيانى ، وتستفسر روحى ، ولكننى أبقى مجهولا ، مستتراً ، مكتنفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت .

أنا غريب عن جسدى ، وكلما وقفت أمام المرآة أرى فى وجهى مالا تشعر به نفسى ، وأجد فى عينى مالا تكنه أعماقى .

أسير فى شوارع المدينة فيتبعنى الفتيان صارخين : « هو ذا الأعمى فلنعطه عكازاً يتوكأ عليها » . فأهرب منهم مسرعاً ، ثم ألتقى بسرب من الصبايا فيتشبثن بأذيالى قائلات : « هو أطرش كالصخر فلنملأ أذنيه

بأنغام الصبابة والغزل » . فأتركهن راكضاً . ثم ألتقي بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين : هو أخرس كالقبر فتعالوا نُقوِّم اعوجاج لسانه » . فأغادرهم خائفاً . ثم ألتقي برهط من الشيوخ فيومئون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين : « هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان » .

* * *

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها .

فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع لي .

أستيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته . ثم أخرج إلى النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي فتسير أمامي إلى حيث لا أدري ، باحثة عن أمور لا أفهمها ، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القَتَاد ، فتراودني أفكار غريبة وتتناوبني أميال مزعجة مفرحة موجعة لذيذة ، ولما ينتصف الليل تدخل علي من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنسية ، فأحدق بها وتحدق بي ، وأخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ، ثم أحاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان .

* * *

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .

أسير فى البرية الخالية فأرى السواقى تتصاعد متراكضة من أعماق الوادى إلى قمة الجبل ، وأرى الأشجار العارية تكتسى وتزهر وتثمر وتنثر أوراقها فى دقيقة واحدة ، ثم تهبط أغصانها إلى الحضيض وتتحول إلى حيات رقطاء مرتعشة . وأرى الأطيار تنتقل متصاعدة ، هابطة ، مغردة مولولة ، ثم تقف وتفتح أجنحتها وتنقلب نساء" عاريات ، محلولات الشعر ، ممدودات الأعناق ينظرن إلىّ من وراء أجفان مكحولة بالعشق ، ويتبسمن لى بشفاه وردية مغموسة بالعسل ، ويمددن نحوى أيادى بيضاء ناعمة معطرة بالمن واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظرى ويضمحللن كالضباب تاركات فى الفضاء صدى ضحكهن منى واستهزاءهن بى .

أنا غريب فى هذا العالم .

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ماتنظمه ، ولهذا أنا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفنى المنايا وتحملني إلى وطنى .

الكلام وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين .

لقد تعبت روحى من الكلام والمتكلمين .

لقد ضاعت فكرتى بين الكلام والمتكلمين .

أستيقظ فى الصباح فأرى الكلام جالساً بجانب مضجعى على صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إلى بعيون ملؤها الدهاء والخبث والرياء .

أغادر فراشى وأجلس إلى جانب النافذة لأزيح نقاب النوم عن بصيرتى بفنجان من القهوة ، فيتبعنى الكلام وينتصب أمامى راقصاً صارخاً معربداً ، ثم يمد يده مع يدى إلى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافى . وإذا تناولت لفافة يتناولها معى . وإذا رميت بها رماها معى أيضاً .

أقوم للعمل فيلحق بى الكلام موسوساً فى أذنى ، مهمهماً حول رأسى . مقرقعاً فى خلايا دماغى . فأحاول طرده فيضحك مقهقهاً ، ثم يعود إلى الوسوسة والهمهمة والقرقعة .

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفاً فى باب كل حانوت ، منبسطاً على جدران كل منزل . أراه فى أوجه الناس وهم صامتون . وفى حركاتهم وسكناتهم وهم لا يدرون .

إن جالست صديقى يكون الكلام ثالثنا . وإن التقيت بعدوى ينتفخ الكلام إذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولا إلى جيش عرمرم أوله مشارق الأرض وآخره مغاربها . فإذا غادرته هارباً ظل صدى كلامه يتمايل

مختبطاً فى باطنى اختباط طعام لا تهضمه المعدة .

أذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا الكلام وأخاه وهم يلبسون الكذب رداء ، والاحتيال عمامة وحذاء .

ثم أسير إلى المعمل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد الكلام واقفاً بين أمه وعمته وجدته ، وهو يقلب لسانه بين شفتيه الغليظتين وهن يتبسمن له ويضحكن منى .

وإذا بقى لى شىء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهياكل ، رأيت هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفى يده الصولجان دقيق الصنع لطيف الجوانب ناعمها .

وعندما أعود فى المساء إلى غرفتى أجد الكلام الذى سمعته سحابة نهارى متدلياً كالأفاعى من سقفها . منسلا كالعقارب فى قرانيها .

الكلام فى الفضاء وما وراءه . وعلى الأرض وتحتها .

الكلام على أجنحة الأثير ، وفى أمواج البحر ، وفى الغايات والكهوف ، وفوق قمم الجبال .

الكلام فى كل مكان ، فإلى أين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟

أيوجد فى هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمى إليها ؟

هل يرحمنى الله ويمنحنى موهبة الطرش فأحيا سعيداً فى جنة السكون الأبدى ؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبلة الألسنة ، حيث الكلام لا يباع ولا يشرى . ولا يعطى ولا يؤخذ .

ليت شعرى أبين سكان الأرض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟ هل يوجد

بين طغمات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصوص الألفاظ !

* * *

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم أنواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستضعفين » الذين يعيشون فى المستنقعات النهار وطوله . وعندما يجئ المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء ، مفعمين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح .

وهناك طائفة « المستبعضين » والبعوض من مولدات المستنقعات أيضاً ، وهم الذين يرفرفون حول أذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية صداها النكاية ولحمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحنين » وهى طائفة غريبة فى داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جعجعة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرّحى .

وهناك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطنين الهواء بخوار ألطفه أغلظ من خُوار الجاموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة وأجداثها ، محولين سكينة الدجى إلى عويل أفراحه أحزن من نعيب البوم .

وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة إلا أخشابها فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها محدثين بذلك خشخشة أعذبها أضنك مما تحدثه المناشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة فرقعة ألطفها أغلظ من قرقعة الطبول .

وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه

وهناك طائفة « المستهزين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التى تحرك الهواء بالهواء ، ولكنها تظل هى بدون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزرازير » التى قال عنها الشاعر :

« لما حام حائمها توهمت أنها صارت شواهينا » .

وهناك طائفة « الأجراس » وهى تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر لا تعد ولا تحصى ولا توصف ، أغربها فى عقيدتى طائفة نائمة تملأ الفضاء غطيطاً ولكنها لا تدرى .

* * *

والآن وقد أبنت بعض قرفى واشمئزازى من الكلام والمتكلمين ، أرانى كالطبيب المعتل أو كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبى قبيل أن يرحمنى وينقلنى إلى غابة الفكر والعاطفة ، وألحق حيث لا كلام ولا متكلمون .

الفهـرس

رقم الإيداع ٣٧٥٤ / ٩١